الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

جامعة البويرة

قسم: اللغة والأدب العربي

مذكرة لنيل شهادة ماستر تخصص لسانيات تطبيقية

بلاغة المتكلم من خلال كتاب الإيضاح للقزويني
دراسة لسانية نفسية

إعداد الطالب:
- سليمان العربي

إشراف الأستاذ:
إلياس جوادي

لجنة المناقشة

1) عيسى شاغة ..... رئيسا
2) إلياس جوادي ..... مشرفا ومقرراً
3) بشير بحري ..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية:

2018/2017

مقدمة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وخاتم النبيين إمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الصيت الذي ذاع للدراسات اللغوية العربية لا يمكن لأي أحد من العالمين أن يتجاهله، لا سيما ما تعلق بمحورين متكاملين من الدراسات اللغوية العربية، هما البلاغة العربية و النحو العربي فقد أحاطا من وجهة نظرنا أيما إحاطة بالظواهر اللغوية، سواء منها المعنوية أو المبنيوية أو ما يجملهما معا ونقصد بذالك دراسة أوجه الإعجاز القرآني.

وقد أخذت الدراسة اللغوية لإعجاز القرآن بعدين اثنين هما:

أنّ اللغويين العرب كان هدفهم من الدراسة القرآنية الحفاظ على كتاب الله من التحريف، فجعلهم الله بمشيئته سببا لذلك فهو محفوظ من لدنه قدرا حيث يقول في محكم تنزيله(إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون).الحجرات، الآية09.

أما ثاني البعدين فهو أن دراساتهم للغة القرآن جعلتهم ينتجون موروثا لغويا نظريا ضخما أحاط بكل مستويات اللغة، من مستوى أصواتها التي كانت على جانب كبير من دقة وصفها، وهذا جلي في إبداعات الخليل بن أحمد الفراهيدي، إلى جانب تلميذه سيبويه الذي أبدع في مستواها النّحوي ، فقد كان كتابه مدرسة خاصة لتعليم اللغة.

أمّا البحوث البلاغية على وجه الخصوص في التراث العربي فإنها لم تستقر إلا مع خوض عبد القاهر الجرجاني في تشعيباتها، إذ كانت من قبله فنا يجيده النقاد، فكانت إن صلح أن نطلق عليه وصف (بلاغة نقدية)، كما هو ملاحظ في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وغيره.

ثم الذي ساق التوفيق للإمام الجرجاني هو اهتمامه بدراسة نظم القرآن، وكذا خوضه في البحوث البلاغية مع معرفته الكبيرة الدقيقة بعلم النحو، والإمكانات الاتساقية التي يوفرها النحو العربي للمتكلم، وهذا ما أسماه بمعاني النحو.

ففي هذا البحث أتناول معالجة زاوية دقيقة مما ذكرت، تعنى بالبحث عن معالم اللسانيات النفسية في البلاغة العربية، وتحديدا عن الخطيب القزويني في كتابه (الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع)، فكان عنوان البحث كالتالي:

بلاغة المتكلم من خلال الإيضاح للقزويني؛ دراسة لسانية نفسية، فالعنوان يفي بما سنقوم به وهو البحث عن معالم اللّسانيات النفسيّة فيما يجانب متعلّقات بلاغة المتكلّم كما هي موجودة عند الخطيب القزويني، وفي هذا البحث أيضا هناك تطرق لبعض المسائل اللسانية النفسية التي لم ترد في كتاب – الإيضاح- لكنها وردت في التراث العربي، ولقد اخترنا كتاب **الإيضاح** ليكون محور درسنا لأنه كما يقول عنه محمد عبد المنعم الخفاجي- وهو أحد محققي كتاب الإيضاح-"يمتاز الإيضاح للخطيب القزويني بعدة ميزات ظاهرة: فهو أوفى كتاب في بحوث البلاغة، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما، وأسلوبا، وهو كثير البحث والتعمق، والاستنباط لأسرار البلاغة".

أما عن السبب الذي دفعنا لإنجاز هذا البحث، فهو دافع ذو وجهتين وجهة ذاتية تتمثل في الميو إلى دراسة التراث العربي نحوا و بلاغة، وأخرى موضوعية من منظور أن اللسانيات النفسية ستمكننا من الخوض في مجالين من مجالات الدرس العربي هما البلاغة العربية و النحو العربي، كما أننا نطمح بهذا إلى إثراء المكتبة العربية بمثل هذه البحوث خاصة في مجال اللسانيات النفسية.

بعض مسائل هذا البحث تتمحور حول إشكال كان يحز في أنفسنا منذ مدة أي منذ معرفتنا باللسانيات النفسية هذا الإشكال تمثل في التساؤل عن وجود معالم اللسانيات النفسية في التراث العربي من خلال كتاب الإيضاح للقزويني؟، وقد تفرع عنه أسئلة جزئية مفادها، التساؤل عن تمكن النحو العربي المبنوية التي اتهم بها إلى وضع تفسيرات نفسية للأداءات الكلامية، ثم ما مدى التوفيق الذي حصدته الدراسات اللغوية العربية في إرساء معالم للسانيات النفسية، من جهة أننا ننظر للبلاغة العربية، والنحو العربي نظرة تكامل لا تفريق؟

اتبعنا في محاولة الإحاطة بهذه الإشكالية خطة نظنها ستوفي بهدفنا في هذا البحث، قسمنا البحث من خلالها إلى فصلين: **الفصل الأول عنوانه: فصاحة المتكلم أصل لبلاغة الكلام،** وفيه تحدثنا عن شيئين مهمين هما: أن الفصاحة ملكة تتعلق بالمتكلم، و بهذا الاعتبار قسمت هذه إلى ثلاثة عناصر هي: فصاحة اللسان في أداء الكلام، وفصاحة المفردات، و فصاحة التعبير عن المقصود، مختصرها

الفصاحة من الإتباع إلى الإبداع، أما العنصر الثاني في الفصل الأول، فإننا لم نفصل فيه كثيرا لأنه لم ترد له إشارة صريحة في كتاب **الإيضاح**، لكن لفظة **الملكة** دعتنا للإشارة إليه في هذا البحث، ولأنه مبحث مهم في اللسانيات النفسية، وللعرب حديث فيه.

أمّا الفصل **الثاني فعنوانه: بلاغة المتكلم من القصد إلى بلوغ البيان**، هذا العنوان اختير تماشيا مع ترتيب الأبواب في كتاب **الإيضاح**، قسم الفصل إلى مبحثين هما، أن النحو على الحقيقة قصد، و فيه بيان الآلية التي وقعت فيها السلوكية في تفسير الظاهرة الكلامية، و كذا النمطية التي كان تشومسكي دارسا للغة بها بتأثير من المنطق، أما العنصر الثاني من هذا الفصل فهو داخل في جانب البيان، وفي بيان أن البيان فيه من الجوانب العقلية، والنفسية كما فيه من الجوانب اللغوية.

لقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج الوصفي التحليلي، من أجل الإحاطة قدر الإمكان بما حوته المدونة، لاستنباط الآثار الدالة على الدرس اللساني النفسي في التراث العربي، كذالك كانت لنا بعض الاستعانة بالدراسة النقدية التحليلية لبعض الموضوعات في اللسانيات النفسية.

أمّا عن الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث المتواضع فهي لا تخرج عن أمرين: أولهما قلة المصادر، و المراجع خاصة في اللسانيات النفسية؛ أما ثاني الأمرين فهو قلة الدراسات العربية في هذا المجال فعلى حسب إطلاعي لم تكن هناك محاولة في البحث عن معالم اللسانيات النفسية في التراث العربي إلا ما أشير إليه منثورا في كتابات ما وقع بين أيدينا من مراجع.

وفي الأخير نتقدم بجزيل الشكر لأستاذنا المشرف على توجيهه لنا وإعانته إيانا لإتمام هذا البحث المتواضع، والشكر موصول أيضا لكل من أهدوني من معرفتهم نصيبا من أساتذتي الكرام.

مدخل

تتناول اللسانيات النفسية بالدرس حركية الملكة اللغوية في التعبير عن الدوافع النفسية المعنوية باستخدام مناهج علم النفس في سبر أغوار العمليات النفسية، والعقلية الكامن وراء العمليات اللغوية، والبداية تكون بمعرفة ماهية اللسانيات النفسية في موضوعها يقول صلاح فضل: "اعلم أن الخطوات التي استطاع فيها علم النفس أن يسهم بشكل مباشر في تنمية البحوث اللغوية، و البلاغية، هي تلك الذي أخذ يحلل فيها آليات التلقي و التذكر، وتكوين الأخيلة بالمعطيات الحسية، وطرق اكتساب اللغة وتمثّلها معرفيا، وذلك باستخدام المعلومات الدقيقة على مستوى الوعي وطبيعة الأمثلة الماثلة في اللاشعور، واكتشاف قوانين التداعي وأدوات النقل والتكثيف والترميز"[1]، وهذا في بيان موضوع اللسانيات النفسية وكيف أن الفرصة أتيحت لعلم النفس بالولوج إلى البحوث البلاغية الإبداعيّة بصفة خاصة.

1. مفهوم اللسانيات النفسية

يقول إبراهيم العصيلي في تعريفه " علم اللغة النفسي فرع من فروع علم اللغة، أو علم اللغة الحديث كما يسمى أحيانا، بيد أن علم اللغة النفسي في عمومه يقع في الجانب التطبيقي من علم اللغة، لأن معظم موضوعاته لغوية تطبيقية"[2]، فهو بالتالي يتكفل بالمشاكل النفسية المؤثرة في المهارات اللغوية التي تعرضها عليه اللّسانيات التطبيقية.

ويعرفه جلال شمس الدين بتعريف موجز دقيق فيقول:" علم اللغة النفسي علم يهتم بدراسة السلوك اللغوي للإنسان و العملي ت النفسية العقلية المعرفية التي تحدث في أثناء فهم اللغة واستعمالها، والتي بها يكتسب الإنسان اللغة"[3] و القول بأن علم اللغة النفسي كان قبل هذا تابعا لعلم النفس اللغوي ولكن مع ظهور النظرية التوليدية التحويلية وغلبة البحوث اللغوية على البحوث النفسية أصبح يسمى علم اللغة النفسي، ولقد كانت العلاقة بين اللغة

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة العالمية المصرية، لونجان، ط1، 1996، ص 30

[2]-عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، علم اللغة النفسي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية 2006، ص11

[3]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه و نظرياته و قضاياه، الأسكندرية،2003،ج 1، ص18

والنفس على صلة وثيقة خاصة علم النفس العيادي مع "سيغموند فرويد" في فكرة التداعي الحر، وكذالك مع المنهج الإستبطاني في علم النفس أيضا حيث كان ما يطلب ما في باطن النفس على سبيل إخضاع العمليات النفسية للملاحظة المباشرة.

لقد ركز علم اللغة النفسي بقوة على نظرية تشومسكي باعتبارها ذات صلة مباشرة بالسلوك اللغوي، وباعتبارها نظرية في علم اللغة وليست نظرية في علم النفس، ويضاف إلى ذلك الأثر الأساس لعلم اللغة التوليدي والذي هو الإبداع اللغوي في دائرة اهتمام علماء النفس[1] فهل يتماشى هذا الإبداع مع النمطية التي درس بها تشومسكي العملية الإبداعية للغة كما سنبينه في متن هذا البحث إن شاء الله؟

2. مفاهيم أساسية في اللسانيات النفسية:

الظاهر عند أهل الفطن أن وجود الكيان الداخلي للإنسان متعلق بمتلازمين هما: النفس والعقل و النفس فيما يتعلق باللغة كمعنى ولفظ أقوى من العقل الذي يتحكم غي إخراج المعاني و مشاكلة اللفظ للمعنى، وهذا معنى قول الجاحظ أنّ الألفاظ معقولة محدودة والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، وإنّما الشّأن في سيطرة العقل عليها باستخدام ملكته اللغوية، والقول "أنّ النفس متمكنة في الإنسان أكثر من العقل، فقد يعيش الإنسان بنفس بلا عقل كما يعيش الحيوان، ولكنه لا يعيش بعقل دون نفس، ولكن في العقل من الدراية والسياسة وتقبل العلم ما ليس في النفس من المكر، والتحايل، وتقبل التمرد"[2]، و بهذا ما على العقل إلا أن يلبي حاجات النفس، فالعقل مكلف بالمبادئ، و يحاول نيل القوة الموازية لقوة النفس لهذا فهو يشكل الملكة اللغوية، فالنفس لها مطالب معنوية، والعقل له

[1]-ينظر: صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2008، ص133

[2]- عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، الفصل بين النفس والعقل، مكتبة دار المنهاج للنشر و التوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1439هـ، ص07

المبادئ و الأفعال اللغوية، وبما أن العقل يختص بالعلم النظري و الضروري، وفيه يحدث العلمان على السواء، فلابد له لغويا أن يجرد الكيفيات للتعبير عن المعاني المتزايدات.

1/ مفهوم الملكة:

أ- لغة: ورد في اللسان لابن منظور" مملكة سلطان الملك ورعيته"ويقال "طالت مملكته، وعظم ملكه، وكثر ملكه"[1]، " .....وعن أبو إسحاق في قوله عز وجل-(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء)-[2]،معناه تنزيه الله عن أن يوصف بغير القدرة، ويعطيها هذا التعريف اللغوي صفة القوة و الرسوخ، والتحكم فيما امتلكت له، واسترعيت عليه، كحكم السلطان للرعية بقدرة خاصة، والقدرة الخاصة بالملكة اللغوية هي التعبير عن المقصود كما ورد عند الخطيب في حديثه عن ملكتي الفصاحة والبلاغة، وهما داخلتان في الاصطلاح .

ب- إصطلاحا: يعرفها الخطيب القزويني[3] أي ملكتا الفصاحة و البلاغة بقوله في الأولى "بأنها ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[4]، والثانية أي ملكة البلاغة بأنها " ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ"[5] فالأولى تمثل القدرة و الثانية قوة التصرف في القدرة، "و الملكة قسم من مقولة الكيف التي هي هيئة قارة لا تقتضي قسمة ولا نسبة، وهو

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، باب الميم، مادة- ملك- ص4267

[2]- يس، الآية 83

[3]- هو جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن،ابن خطيب دمشق، كما يقول جورجي زيدان و بتفصيل أوسع هو" الشيخ الإمام العالم العلامة خطيب الخطباء، مفتي المسلمين، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن حفص عمر، القزويني الشافعي كما يقول تلاميذه، أو هو نفسه في مقدمة كتاب الإيضاح. فهو من أسرة علمية، و دينية كبيرة كان لها ولا شك أثرها في حياته، وتفكيره وروحه ولد عام 666هـ، وتعلم الفقه وتولى القضاء، وانتقل إلى دمشق، وتولى الخطابة في مسجدها، ثم تولى القضاء بمصر، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر، اكتسب مالا طائلا ثم جاء إلى دمشق وتوفي فيها، أشهر مؤلفاته: تلخيص المفتاح. الإيضاح في علوم البلاغة وكانت وفاته عام739هـ

- ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم الخفاجي، ج1، المكتبة الأزهرية للتراث، ط3، الإسكندرية، ص11

[4]- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني و البيان و البديع، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، 1996، ص31

[5]- المرجع نفسه، ص 34

مختص بذوات الأنفس راسخ في موضوعه"[1]، وقوله قسم من مقولة الكيف معاكس للكم لأن الملكة كيفيّات رسخت للتعبير عما في النفس بفعل العقل اكتسابا و تنظيما و هي مختصة بالإنسان كون مكرم بالعقل، والعقول ملكات و الملكات تملكها العقول، وقد ورد تعريف الملكة في ديوان العرب "بأنها الهيئة الراسخة في نفس المتكلم، والتي يحصل عليها بالمران والدربة، والتعلم والتكرار، ومن جهة أخرى قد تدل على المهارة والصناعة والجودة، والكفاءة، ومعلوم أن الملكات هي تلك القدرات التي يكتسبها الإنسان وراثيا، أو تجريبيا، وينتح من خلالها مجموعة من المعارف، والمهارات، والمواقف والميول بحذق ودراية فليس العقل إلا ملكة من بين مجموعة من الملكات التي يستخدمها الإنسان على مستوى التفكير إلى جانب الخيال والذاكرة"[2]،وفيه نظر إذ أن العقل هو ملكة من مجموع الملكات بعموم معنى السيطرة على النفس، وكل الملكات الجزئية الأخرى تابعة له مستعين بها والمثال ظاهر في الملكة اللغوية إذ يستعين بها على تمثيل المعاني

2/ مفهوم العقل:

أ-لغة:" العين و القاف و اللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول و الفعل"[3]،و" العقل نقيض الجهل، يقال يعقل عقلا إذا عرف ما كان يجهله"،" وما فعلت كذا منذ عقلت، وعقل فلان بعد الصبا أي عرف الخطأ الذي كان عليه، وهذا مريض لا يعقل"[4]، وبهذا المعنى نجد العقل راسما لحدود النفس، وميولها و ممثلا لها، والنفس فيها غريزة تحتاج إلى تحقيقها ولكن العقل يعرف مقاديرها وأنواعها ، والعقل يحتاج إلى معرفة، وعلم وخبرة.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 34

[2]- ديوان العرب، www.diwanalarab.com

[3]- أبي الحسن أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، ص55

[4]- أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح :باسل عيون السود، باب العين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998، ص 670

ب- اصطلاحا:" هو ما يبصر به الإنسان العلوم النظرية والضرورية، ويمكنها في النفس ويتحكم فيها، وبدايته أين تنتهي مدركات الحواس، وإجماع العلماء بأن محله القلب وهذا مذهب الشافعي وأكثر المتكلمين، ومهمته الإدراك التام الكلي والجزئي والتأليف بين الصور والمعاني"[1]، و العلاقة بينه وبين الدماغ هي قضية قرار وتنفيذ القرار، فالعقل آمر والدماغ منفذ لأنه المركز العصبي للإنسان، والإنسان مميز عن الحيوان بالعقل لا بالدماغ، وقضية الشبهة بين العقل والدماغ قضية سرعة وعادة يحملها العقل للدماغ بالتكرار لهذا فإن فك نظم الجمل يكون على مستوى الدماغ، والفهم على مستوى العقل لاغير.

3- التذكر و النسيان:

إن الذاكرة لدى الإنسان هي الضامن للتفكير المستمر الذي يتميز به عقل الإنسان بل أنها تضمن له العلاقة المستمرة بين الرغبات النفسية و العمليات العقلية والتنفيذية على مستوى الدماغ، وعمادها اللغة ومعانيها، فهي قائمة بها والدليل التجارب التي أجراها "ابنجهاوس" الموسومة بالمقاطع الصماء، فكان كلما أثار الذاكرة بمقطع أصم استحضرت مقاطع ذات دلالة، وذالك على مفحوصين طبعا[2]،وإذا عكسنا العملية فإننا نجد أن الذاكرة تضمن إلى جانب العقل صفة الحضورية للملكة اللغوية، إذ على مستواها يحدث التداعي المعنوي.

[1]- منتدى الأصلين، الفرق بين النفس و العقل و الدماغ، s/www.aslein.php

[2]- ينظر جلال شمس الدين، المرجع نفسه، ص 34

الفصل الأول:

فصاحة المتكلم أصل لبلاغة الكلام

- تعلق الفصاحة بالمتكلم تعلق إتباع
- فصاحة التعبير عن المقصود تعلق إبداع
- الفصاحة ملكة شأنها الاكتساب

اللّغة ذوبان المعنى في لفظه المختار له عقلا لقول **الجاحظ** عن حضور العقل في الكلام"وقالوا شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله"[1]، وسنبين دور العقل في الكلام ونفسر العلم فيه في موضعه، والقول أن اللفظ والمعنى يمتطيه قصد المتكلم، وإرادة الإبلاغ منه، والإفصاح عما يضمره، وطبع اللغو ووفرة المعنى متأصلان في الإنسان تأصلا فطريا، ونقصد بتأصل اللغو فيه الاستعداد الفيزيولوجي للنطق والحاجة المعرفية للاكتساب، وليس قصدنا في ذلك ما أراده **تشومسكي** برسوخ ملكة النظام فطريّة لدى الإنسان.

ومجمل القول في هذا الفصل يدور حول أصل بلاغة الكلام ،الذي هو التجلّي الواقعي للّغة في مقامها التواصلي الواقعي، والمعلوم أن العلماء العرب توصلوا إلى القول أن الفصاحة أعمّ من البلاغة من حيث عمل ملكَتيهما "فكلّ بليغ _كلاما _كان أو _متكلما_فصيح، وليس كل فصيح بليغ"[2]، وهذا واقع لا مفر منه فلكثير من الناس نظام فصيح و لكن هيهات لكلامهم الذي له القطيعة المطلقة مع البلاغة.

ويقال البلاغة متعلّقة باللّفظ والمعنى على السواء، وأن الفصاحة متعلقة باللفظ دون المعني، فبأي اعتبار حدد هذا ؟، وهل هذا معناه القطيعة الحتمية بين الفصاحة والمعنى.

والجواب على هذا يحتمل أمرين :

_أولهما: لا يمكن إطلاق البلاغة على طرف دون الأخر.

_ثانيهما: إمكان فصل الفصاحة عن المعنى مع عدم وجود القطيعة.

I. فصاحة المتكلم بين نظام اللسان و أداء الكلام.

[1]-أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتبيين، تح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص79

[2]-الخطيب القزويني، الإيضاح، ص34

وجب في هذا المقام أن نكون على دراية بأنّ مصطلح الفصاحة وصف لعدة مفاهيم فأول وصف لها كان وصفا كمعيار للغة التي استقرءها علماء العربية عند جمعهم للمادة اللغوية أثناء وضع النحو، ونسميهم النحاة باعتبار الهدف، وهي وصف للغة في حدّ ذاتها أيضا لكن كلّها تابعة للمتكلّم، ففي كتاب **سيبويه** هذا القول ومثله كثير: "...ومن جواز الرفع في هذا الباب أني سمعت رجلين من العرب عربيين يقولان: كان عبد الله حسبك به رجلا..."[1] هذا وإن دلّ على شيء إنما يدلّ على أن الفصاحة متعلقة بالمتكلّم.

المتكلم الفصيح هو منتج الكلام الفصيح، والكلمة الفصيحة، والمالك لملكة الفصاحة، والوصف بها يتراوح بين أداء الكلام و استقرار نظامه، إذ هي وسيط بيان بربطها بين نظام اللسان و أداء الكلام.

1. تعلق الفصاحة بالمتكلم تعلق إتباع

مفهوم الفصاحة

أ_لغة: جاء في اللّسان، مادة (ف ص ح)، "يقال أفصح اللّبن ذهب اللّبأ عنه، والمفصح من اللّبن كذلك، وفصح اللّبن إذا أخذت رغوته، قال **نضلة** :

رأوه فازدروه وهو خرق وينفع أهله الرجل الفصيح

فلم يخشو وصالته عليهم وتحت الرّغوة اللّبن الفصيح"[2]

وأيضا فصح فصاحة، البيان، فصح الرجل فهو فصيح، وفصح فصاحة وأفصح فهو فصيح من قوم فصحاء.....قال **سيبويه:** "كسروه تكسير الاسم، كقضيب"

1_أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب كتاب سيبويه، ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988،ص28.27

2- إبن منظور، لسان العرب، م2، دار صادر، بيروت لبنان، ص3420

وجاء في العين..."ورجل فصيح، وفصح فصاحة، وأفصح الرجل القول، فلما كثر وعرف أضمروا القول واكتفوا بالفعل، ويقال في وصف العجم أفصح وإن كان بغير العربية كقول أبي النجم:أعجم في أذانها فصيحا، يعني صوت الحمار، والفصيح في كلام العامة المعرب"[1] ، إذن معنى الفصاحة في معاجم العرب البيان عن المعنى باللفظ، وهي وصف للمتكلم في قول الخليل: "رجل فصيح" والدلالة على فعل الإبانة في قوله"أفصح الرجل القول"، وهي آلة اللسان مهما كانت اللغة المتكلم بها.

ومجمل القول أن كل متكلم تكلم لغة قومه خالصة من شائبة اللغات الأخرى فهو الفصيح على سنن كلام قومه مقيد بلغة مواضعاتهم

الملاحظ ظاهرا من قول ابن دريد:"فصح الأعجمي إفصاحا إذا تكلم بالعربية" أنه خلاف قول الخليل، وهذا خطأ لأنه يقصد متعلم العربية إذا تخلص من طبع لغته الأولى لألا يجذبه الطبع عن الإفصاح بالعربية الخالصة، والفصاحة نوعان:

_فصاحة سليقيّة (طبعيّة) وهي أجود لكن ليست أثبت، والدليل ما حدث للعربيّة من تلوّث لغوي جرّاء تداخلها مع اللغات الأخرى، وتساهل العربيّ في أداء لغته

_فصاحة تلقينية (تطبّعية) فكل اللّغات تتعلم، وتفصّح.

ب_*اصطلاحا:* هي وصف للمتكلم يقول الخطيب **القزويني** "بأنها ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[2]، واللفظ الفصيح يشمل المفرد والمركب وهي ملكة .

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين/ تح : عبد الحميد هنداوي، م3، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، 2003، ص324.323.

[2]- الخطيب القزويني، المرجع نفسه، ص31

و قدرة، وقال عنها **ابن سنان الخفاجي** "بأنها لا تقع إلا وصفا للألفاظ"[1]والقول أنها وصف للألفاظ التابعة لمتكلم فصيح، ولا يكون اللفظ فصيحا إلا من متكلم فصيح فصاحة قارة لا تظهر في الكلام حظا فيتراوح الكلام بين الفصاحة وعدمها.

قال الخطيب شارحا إيّاها:"وقيل يقتدر ولم يقل يعبّر ليشمل حال الكلام من عدمه"[2] وليس بين المفهومين تناقض يذكر إذا كانت الفصاحة ملكة راسخة في نفس المتكلّم وهي وصف له، فوصف الألفاظ بالفصاحة هو الأحق لأن المعاني تظهر على قدر فصاحة الألفاظ، وجريانها على سنن اللغة المعينة ، و به يقع النّظم وفك النّظم لالتماس الفهم.

وللفصاحة من هذا المنظور وجهان:

أما الوجه الأول، فهو وجهها الظاهر يتمثّل في الفصاحة المثلى في أداء اللسان العضو المتلفظ به الكلام

أما الوجه الثاني فهي القدرة الخفية المحلقنة لنظام الكلام.

وللإشارة لا نقصد بالأداء النّظم، إنّما هو "التلفظ بالكلام حسب أعراف وقواعد معينة للتعبير عن المعاني المختلفة"[3]،وبهذا يقترن النظم بالأداء الصوتي كي لا يكون اللفظ ضوضاء، ولا يكون النظم حديث نفس.

2. فصاحة اللسان في أداء الكلام

[1]- إبن سنان الخفاجي،سر الفصاحة، خرجه واعتنى به: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، عمان، الأردن، 2006، ص53

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح،ص31

[3]- محمد بن علي العمري، أداء الكلام وعلاقته باالمعنى و الإعراب، مجلة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، الع:3، محرم 1431_يناير2010، مكة، ص15

وهذا هو الظاهر من ملكة الفصاحة فيؤدى الكلام على ضوء قواعدها، واللفظ به نبلغ أذهان مخاطبينا، وبه يكتسب الطفل لغة قومه، وبه ينفذ اللغوي إلى دراسة القدرات التي توفرها ملكة الفصاحة.

ثم إن اللغة كما يعرفها **ابن جني**"عبارة عن أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1] فقد أعطى لنا هذا التعريف أثر اللغة الصوتي،وحتى الإشارة إلى منهج دراسة اللغة بالانطلاق من استقراء ألفاظها الظاهرة إلى سبر أغوارها الكامنة المتمثلة في القوانين اللسانية المتعرف عليها ضمنا عند المتكلم، وصراحة عند اللغوي.

وحديثنا في هذا المقام حول فصاحة اللسان المتلفظ به، والمقصود بها طلاقة اللسان في صناعة البيان، يقول تعالى في محكم تنزيله على لسان موسى عليه السلام: -(و أخي هارون أفصح مني لسانا فأرسله معي(34))-[2]، أي لا عقدة في لسانه، يفسره قوله تعالى-(رب اشرح لي صدري(26) ويسر لي أمري(27) واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي(28))_[3]، والحاصل أن العقدة في النطق تعيق عملية الفهم و الإفهام، و قد عقد **الجاحظ** فصلا في كتابه البيان والتبيين يتحدث فيه عن عيوب النطق، أو ما أسماه بعيوب البيان، وما يعرض في الصوت اللغوي من مفاسد "والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف و لن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت"[4]،الصوت أثر اللغة البيني بين الأفكار نقلا واستقبالا.

وقد ركّز الجاحظ في قوله السابق على الجانب التواصلي للصوت من خلال بدئه بالسّامع قبل مؤلّف الكلام، لأنّ السامع يعتمد على الصّوت في الفهم تقطيعا، ويفهم من

[1]- إبن جنيّ، الخصائص ،تح:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت،لبنان، ط،1، 2007،ص87

[2]- القصص، الآية 34.

[3]- طه، الآية 28.27.26.

[4]- أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان و التبيين، ص 79

الألفاظ المتعارف عليها بالوضع وهذا ما أثبتته الدراسات اللسانية النفسية، فقد أخذ **سلوبن** على محمل الجد ظاهرة الإدراك، والترابط بين الأصوات الفونولوجية، فجرّبها على مستوى معملي و توصّل إلى نتيجة إدراك الأصوات بمعانيها الدّالة عليها، و هذا ما يخرج ذلك من الجانب النفسي إلى الجانب اللّغوي[1]، إذ يتم إدراك الأصوات وفق العلاقات اللغوية بينها وهو على علاقة وثيقة بظاهرة التّرابط على مستوى التذكّر.

وتقويم اللسان عن العيوب حادث في الغالب الأعمّ مع سبق الإصرار على تقويمه -ما لم يكن العيب خلقيا-، وما يجعل اللسان مصابا بالعي عند إشتغاله على البيان كثرة السكوت و البعد عن الكلام المقوم وبالخصوص أثناء مراحل تعلّم اللغة، وأن كان للكلام ذما لكنه مخصوص بزائد الكلام وفضوله، يذكر ابن سنان ذم زيد السكوت الكثير، فيقول "قيل **لزيد بن علي**: الصمت أفضل أم الكلام؟ فقال: أخزى الله المساكتة، فما أفسدها للسان وأجلبها للحصر، والله إن الممارة على ما فيها لأقل ضررا من السكتة التي تورث أدواء أيسرها العي"[2]مقصد زيد في هذا إنما هو تدريب اللسان على الكلام الفصيح القويم، وأظن أن المنهج في ذلك لا يتعدى إلى النفس سوى أنها الهدف من التقويم، والمنهج في ذلك المنهج السلوكي، حيث يمثل النطق الصحيح المثير، ويمثل النطق بعد تعديله الإستجابة، وقد لاحظ المجرب"سقوط التبسيط والحذف"[3]، وهنا يصلح استخدام مصطلح المثير و الإستجابة على ما فيها من آلية تأباها اللغة.

وهذا الذي ذكرناه لا يتعدى الجانب الفيزيولوجي إلى الجانب النفسي إلا بعد التكرار لصعوبة ترويض العادة النفسية، والجانب النفسي يمثل الدافع إلى الخطأ، وفي هذا يقول

---

[1]- ينظر:جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه، ج2_القضايا، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2003،ص23.22.

[2]- ابن سنان الخفاجي، سر الفغصاحة، ص57.

[3]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص 27

الجاحظ "وقد كانت لغة **محمد بن شبيب** المتكلم بالغين، فإذا حمل نفسه، وقوم لسانه أخرج الراء على الصحة تأتى له ذلك، وكان يدع ذلك استثقالا، أنا سمعت ذلك منه"[1]،فالدافع مفاده انجذاب النفس للخفة، وتخفيف الثقل راجع إلى المران وكثرة الكلام المقوم على منهج المثير و الإستجابة، والعيب النطقي في الموضع المعين من اللغة يرسخ رسوخ اللغة في النفس موضعا و المرجع في تقويمه إلى العضو الفاعل للكلام بحضور العقل فيصح موضعه في النفس.

ومن النكت اللغوية في التهرب من عيوب النطق أن رواة الأثر يروون، أن شيخ الجهمية **جهم بن صفوان** كانت لديه لثغة الراء، فتعرض الغين لمخرج الراء لكن لذكائه أنه كان كلما خطب في الناس بإبدال كل كلمة فيها راء بمرادفتها، فيقول مثلا في كلمة مطر غيث، لكن دس هذا العيب يفضي إلى عيب آخر هو انتهاك الفروق الدلالية للمترادفات، وتفويت نوادر المعاني، ولنفرض أنه عرض له الحديث عن المطر بمدلول العذاب لم يصلح له القول بدل المطر الغيث.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العيوب تعمل على إحداث تشويش في طريق وصول الرسالة الكلامية سليمة المعنى في الغالب الأعم،وهنا يحدث الخدش في العملية التواصلية و الذي يهمّنا من كل هذا هو الدّور الذي يقدّمه علم اللّغة النّفسي في علاج إضطرابات الكلام، وأرى أنه تتدخل عوامل العلاج التّالية:(العلاج النّفسي،العلاج اللّغوي،العلاج العضوي)[2]، و السؤال المطروح بالنظر إلى الفصل بين الجانب العلاجي النفسي و اللغوي و العضوي، هل هناك عيب في الكلام لا يصلحه إلا الجانب النفسي؟، و الجواب كما ذكرنا والله أعلم أنّ المنهج السلوكي هو العلاج الأمثل لهذه العيوب، وهذا المنهج يعتمد على التقويم العضوي الفيزيولوجي، ويقام بالتدريب العضوي حسب المعطيات اللغوية ، من

[1]- أبي عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان و التبيين، ص37

[2]- صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، ص18

تشخيص العيب النطقي، و الدراية بمخارج وصفات الأصوات المعيبة، وقد يلجأ في العلاج إلى العمليات الجراحية على مستوى أعضاء النطق، أما النفس فهي كما رأينا في القول السابق للجاحظ إلاّ دافع إلى الخطأ، أو متقبلة له على صحته بعد التّقويم.

3. فصاحة الكلمة

قد تقع الكلمة في اللغة بمفهوم الجملة أو الكلام قال الله تعالى –(كلا إنها كلمة هو قائلها)-[1]، وهذا إشارة إلى قول الكافر حين يأتيه الموت-(رب ارجعوني لعلي أعمل صالحا فيما تركت)-[2]

وفي الاصطلاح هي"قول مفرد"، وقيل قول مفرد لأنه أذا قيل لفظ لزم تقييده بالوضع، والمفرد ما لا يدل جزؤه على جزء معناه"[3]، وهي في اللسانيات أقصى ما يصل إليه التقطيع مما يدل على معنى، وللكلمة فائدة تؤدّيها وهي الدّلالة على المعنى المفرد المقصود، وللكلمة حقيقة نفسيّة ثابتة هي تمثيل العالم الخارجي على مستوى الذهن، يقول ابن جني في هذا الصدد:"لكل واحد منها لفظ إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره، ويغني ذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره"[4]، وإن كان ابن جني هنا يقصد الأشياء الجمادات، لكن هذا التمثيل بالمحسوسات لتقريب الفهم أنجع، وإن الكلمات بصفة أدق عند ضمها بعضا إلى بعض، فإنها تمثل ذهن المتكلم عند ذهن السامع.

ثم إن للكلمة مدلولان على حسب مكونيها، فلها الدّلالة المعجمية على مادتها في المعجم، ولها الدّلالة الصرفيّة على حسب القالب الصّرفي الذي يحملها، وهذا في الغالب

---

[1]- المؤمنون، الآية 100

[2]- المؤمنون، الآية 99

[3]- ينظر: ابن هشان الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى ومعه، محمد محي الدين عبد الحميد: كتاب سبيل الهدى بتحقيق قطر الندى، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص32.31

[4]- ابن جني، الخصائص، ص44

الأعم، وقلنا في الغالب الأعم لأنّ هناك من الكلمات التي يدخلها التغيّر الصرفي لكن لا تغيير يطرأ على دلالتها، فهي فقط من أجل تخفيف النطق للكلمة، كالإدغام، وفكه والإعلال بالقلب و الحذف و الإبدال.

إن فصاحة الكلمة عند **الخطيب القزويني** تتمثل في ثلاثة أوجه هي، تنافر الحروف، ومخالفة القياس، والغرابة في معناها، ويخص الخطيب مخالفة القياس بالعدول عن القواعد الصرفية:

أولا-مخالفة القياس:يضرب الخطيب مثالا لذلك بقول الشاعر:

الحمد لله العلي الأجلل[1]

ومخالفة هذا القياس عنده مخلّة بالفصاحة، ولكن مخالفة هذا القياس لا تخلّ دائما بالفصاحة، لأنّ هناك من الكلمات الفصيحة ما خالف القياس الصرفي ولم يخل بفصاحته مثل: "آل" و"ماء" و"يأبى" و"عور" ولهذا يمكن أن نسميه بالإجمال مخالفة القياس اللغوي في كل ما تأباه اللغة وتنكره لمأخذ لغوي، أو صرفي، أو غيرهما، وذلك كالمقراض في قول **أبي الشيص:**

وجناح مقصوص تحيف ريشه ريب الزمان تحيف المقراض

لأنّه لم يسمع في كلامهم إلا مثنى خلافا لسيبويه، وكالأيّم في قول **أبي عبادة:**

يشقّ عليه الرّيح كل عشيّة جيرب الغمام بين بكر وأيّم[2]

[1]- ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح، ص25

[2]- ينظر: الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة، 1999، ص 13.12

أراد بالخروج عن القياس اللغوي الذي يفسد فصاحة الكلمة، و يخل في ذلك الخروج القياس الصرفي، وما استعمل من الكلمات في غير وضعه من غير إرادة المجاز، بالخروج عن سنّة المجتمع اللّساني المعيّن، **فأبي عبادة** في البيت الذي سبق وسّع من دلالة كلمة "أيّم" فضمّن فيها دلالة الثيّب، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، و لكن الذي قال هذا البيت شاعر و لربّما كان ذلك لمعنى مقصود.

ثم إن هذا الاختراق للقياس اللغوي يدخل تحت جنحه مقياس الغرابة، والغرابة "أن تكون الكلمة وحشيّة لا يظهر معناها[1]"، "أو يخرج لها وجه بعيد عن معناها"[2]، والمعلوم من هذين القولين أن للفظ وجهان: مستعمل ومهمل، فنستنتج أن للمستعمل وجهان هما:

1. وجه أقرب للاستعمال و الاطراد
2. و وجه أقرب للمهمل في تركه، وقلة استعماله، وجزء من هذا يدخل تحت باب الغرابة كترك الناس لماضي "يدع"الذي هو "ودع"، واستبداله بالفعل "ترك"

ومما يدخل في الغرابة كلمات يظن أن لا أصل لها في اللغة، وهذا لا يعني أن غيب القرآن له مدخل في ذلك، بل الكلمات المستخدمة منٌ بل أشخاص متقعرون في اللغة أمثال ما قاله "عيسى بن عمر" حين سقط عن حماره، فاجتمع عليه الناس فقال: مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني"[3]، وعدم ظهور معناها راجع إلى أنها غير مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص، وهذا لا يعني عدم انتمائها إلى العربية قطعا، فقد تكون منها و لكن متروكة الاستعمال أو لم تتناقل إليهم، وهذا منطبق على غريب القرآن.

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص24

[2]- الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح، ص11

[3]- الصعيدي عبد المتعال، المرجع نفسه، ص11

والدافع إلى الخروج في الكلام إلى الغرابة نفسي مرجعه إلى غلبة المعنى النفسي على العقل الرقيب، وتجاوز سيطرة الملكة اللغوية أو ضيقها، فيخطئ المتكلم في اختيار الكلمة المناسبة للمقام على العموم، وللمقال التركيبي على الخصوص، وهذا ما يوافق معنى الابتذال في الكلام و التشادق في النطق.

يقول إبراهيم أنيس في تحقيق الدافع النفسي للابتذال والتطور الدلالي، وكلاهما يدخلان تحت الدافع النفسي "و لعل أوضح الأسباب في ابتذال بعض الألفاظ، تلك التي تتصل بالناحية النفسية والعاطفية، وذلك كأن يكون اللفظ قبيح الدلالة، أو يتصل بالقذارة و الدنس، أو يرتبط بالغريزة الجنسية، فهنا نلحظ أن كل اللغات تفقد بعضا من ألفاظها التي تعبر عن هذه الناحية فتندثر تلك الألفاظ أو تتزوي، و يحل محلها لفظ آخر أقل وضوحا، وأكثر غموضا وتعمية"[1]،وأن كان مقصود إبراهيم أنيس يحوم حول قضية التطور الدلالي فإن المهم أنن الألفاظ الغريبة الوحشية، التي يخرج بها عن لغة المجتمع المطردة المتداولة له دافع نفسيّ، والابتذال يكون في الفكرة لا اللفظ لأن اللّفظ تابع للفكرة فلو كانت الفكرة غير مبتذلة لا يكون اللفظ مبتذلا، ولا غريبا، وهذا رأي ابن رشيق وبعض النقاد الإنجليز[2]، وسبق الحديث عن الابتذال وهم محقون في هذا.

و تلخيص القول أنّ تعمية المعنى الذي فيه الحرج لا بأس به لكن المعتمد فيه التعمية بلفظ فصيح خفيف على اللسان ينتمي إلى العربية، وليس بلفظ تأباه اللغة كلفظ "عيسى بن عمر"، ومثال ذلك تعميم أو نقل العرب للكلمة المهجورة "الهن" لما يستقبح يقول ابن هشام "و الهنّ قيل: اسم يكنى به عن أسماء الأجناس، كرجل وفرس، وغير ذلك، وقيل:عما يستقبح التصريح به، وقيل عن الفرج خاصّة"[3] .

---

[1]- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2004، ص108

[2]- الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح، ص12

[3]- ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى و بل الصدى، ص62

ثانيا:في إفراد الخطيب مخالفة القياس بالقياس الصرفي

أمّا في إفراد **الخطيب** لفصاحة الكلمة مدخلا في عدم مخالفة القياس الصرفي، ولم يعمم القول بالقياس اللغوي، فلأن ذلك من قبيل القواعد التي يعدل عنها، ولا يدخلها القياس كثيرا، ويخطئ فيها المتكلم فتتغير دلالتها الصّرفية.

إن الأخطاء الصرفية تحدث خاصة في مرحلة اكتساب المفردات الاشتقاقية والظاهر يثبت ذلك، إذ يلاحظ الأطفال وهم يكتسبون اللغة يبالغون في عملية التعميم للقوالب الصّرفية على مفردات معجميّة تأبى تلك القوالب، وذلك مثل جمعهم "للغنم" "بغنمات".

هذا فيما يخص التّعميم، وإلى جانب هذا هناك الأخطاء اللّغوية، كقلب بعض الكلمات، فيقولون مثلا في "ملعقة" "معلقة"، ولكن هذا يقوّم مع مرور الوقت بالاحتكاك بلغة البالغين، فتكون لغة الكبير مثيرا ، و تصحيح اللغة عند الطفل ممثلة للاستجابة، وهذا ما يقودنا إلى حقيقة لغوية تبعد الجانب النفسي بهذه العمليات القياسية، و الحقيقة أن الوحدات الاشتقاقيّة أكثر ما تكون ذات اكتساب عن طريق المحاكاة و التقليد، وتكون الوحدات الاشتقاقيّة على وجه الخصوص والوحدات المعجمية على وجه العموم ذات اكتساب لا يقف عند حد معروف، ونجد الوحدات الاشتقاقيّة في العربية ذات تنوعات مختلفة، و القواعد التي تحكم الصيغ الاشتقاقية هي التي يدخلها الخطأ لدوافع نفسية، "وإن معطيات أخطاء الكلام دليل هي الأخرى على أن اللواصق هي وحدات نفسية منفصلة، وأننا نستخدم القواعد لتطبيقها على مفردات معجمية معينة، فلقد وجد "**فورمكن**" أن متحدثي أبناء اللغة من الإنجليز تحدث لهم بعض زلات اللسان في تطبيق هذه القواعد فهم يقولون أشياء مثل "motionly "بدلا من"motionless "، وهذا دليل على أننا لا نملك مداخل منفصلة في معاجمنا العقلية لكل من تلك الصيغ، ولكن نستخدم بالأحرى قواعد لتطبيق اللواصق، وحينما نكون مندفعين

أو متعبين نرتكب أخطاء في تطبيقها"[1]، وقصده هنا باللواصق هي ما يضاف من صيغ اشتقاقية التي تحول الكلمة من اسم إلى فعل أو من فعل إلى صفة ...والقائمة طويلة.

ثم تضرب "**إيفلين**" مثلا بلواصق اللغة الهنجارية، التي هي لواصق أكثر إنتاجا والمتكلم بها يحاول نقل قواعد الإلصاق إلى وحدات أخرى، والجانب النفسي من هذه الدراسة هو التعميم الزائد أما المنهج المستخدم فهو المنهج السلوكي حيث يمثل الموقف الكلامي، أو الكلام السابق المثير، والمورفيم المعمم الاستجابة [2]، وتكون هذه الظاهرة بصفة مطردة فيما يخص تعلم اللغة عند الطفل، أو عند البالغين حين تعلم اللغة الثانية، ومرد هذا إلى جانب نفسي لغوي،لأن المتكلم للغة ما عند تعلمه يحاول إنشاء قواعد كلية، وبذلك فقد يعمم بعض القوالب الصرفية على كلمات تأباها.

هذان العنصران السابقان أي فصاحة اللسان في أداء الكلام وفصاحة المعجم الإفرادي هما ما قيدا بالثبات، وقرب حصرهما للفصاحة للاختصاص باللفظ دون المعنى وما يقرب الفصاحة للمعنى هو الجانب التركيبي.

II. فصاحة التعبير عن المقصود تعلق الإبداع

المشهور من قول العلماء أنّه لا فصاحة إلاّ في ضم الكلم بعضه إلى بعض؛ أي لا فصاحة إلاّ في الكلام أو سلوك طريق الألفاظ للإبانة عن المعاني، يقول **القاضي عبد الجبار**: " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنّما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع"[3]،

[1]- جلال شمس الدين، المرجع نفسه، ص36

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 37

[3]_القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد و العدل،إعجاز القرآن ج16،تح: أمين خولي،دار الكتب، القاهرة 1332هـ، ص199

وهي في هذا القول يذكر أن للكلمة ثلاث صفات تعتبر في ضمها، فالصفة الأولى تكون بما وضعت له الكلمة من معنى، وقد رأينا فيما سبق في بيت "أبي عبادة" و قيد المواضعة هو عماد المعاني بل اللغة بأم عينها، أما الصفة الثانية فهي صفة الإعراب الذي يحدد وظيفتها في سياق الكلام، ويحفظ هذه الوظيفة إذا تغيرت رتبة الكلمة لإرادة معنى يريده المتكلم وقوله بطريقة مخصوصة أي مطابقا لقصد صاحبه الذي يدفعه للنطق.

إنّ الدّافع للكلام هي المعاني النفسية لكن النّطق ليس نفسيا وهل النفس تنتج اللغة؟ فهذا الجاحظ يشترط أن يكون وراء النطق ما يسميه بالحاجات، وهي البواعث الاجتماعية والنفسانية، وكذلك ما يسميه بالعقول وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الاستنباط والملاحظة[1]، وإنّها لملاحظة ذكية من صاحب البيان، إذ فصل بين الدافع والإرادة في تحقيقه، فصل بين العملية النفسية والعملية العقلية، وهنا يورد قول الخطيب في عمل مالك ملكة الفصاحة الذي هو" أن يقتدر على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[2]، و القدرة على التعبير لغويّة عقلية، والمعاني نفسيّة فكريّة، واللغة توفير المادّة و مسؤولية العقل اختيار المادة لمشاكلة المعاني، ويقتضي ذلك العلم بما تقدّمه اللّغة للتّعبير عن المعاني النّفسية وهذا العلم علم ضروري حتى نفصل بينه وبين العلم النظري، ومقتضى العلم الضروري أن يكون تلقائيا، ومن شأنه أن يفسر القدرة التي تجعل من قواعد اللغة عادة يجري عليها الكلام تلقائيا، ومفاده المزاوجة بين فصل الدوال المبنوية، والقدرات التعبيرية الإبداعية.

ينظر المتكلم للغة نظرة برغماتية لكشف المعنى تبعا لما يتطلبه المقام، وما يمليه النظام على حد سواء سعيا لقبض أثر من آثار المعنى، أو ما يسمى بإمكانات يوفرها النحو لتفاوت كيفية الصياغة في تركيب فيه من نظام التعلق المستنبط من النحو الاختياري،

[1]- هادي نهر اللعيبي، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2009، ص59

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص34

فالخروج عن المألوف ليس من حيث القاعدة بقدر ما يكون خروجا عن المألوف في وجه من أوجه ليونة النظام، بل تليينه في يد المعنى[1]،وهذا معنى توخي البيان والبيان يكون بالكلام.

1. القول في الكلام

إن الكلام في اصطلاح أهل النحو"لفظ مفيد" لبنته لفظان على أقل تقدير بينهما علاقة إسناديّة، و الإفادة قول مبدئي في التواصل، وعلاقة الإسناد علاقة لابد منها في كل تركيب[2]، وهذا لا يعني أن النحاة كانوا مكتفين بدراسة المباني دون المعاني.

لقد انطلق **سيبويه** من ما يقع من الكلام على لفظين بعلاقة إسنادية، لأن منه يبدأ التوسّع في الكلام، وهذا مبدأ لسانيّ صوريّ محض، فيقول في المسند والمسند إليه" هما ما لا يغني أحدهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بد فمن ذلك الاسم المبتدأ، و المبني عليه وهو قولك عبد الله أخوك، وهذا أخوك؛ ومثل ذلك : يذهب عبد الله، فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء من الآخر في الابتداء، ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقا، وليت زيدا منطلق لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كما احتاج المبتدأ إلى ما بعده"[3] فالابتداء غير المبتدأ الابتداء ما يبنى عليه الكلام قبل أن نقول أنه مبتدأ، وتأخير الاسم الذي يقع عليه البناء أو تقديمه لا يأخذ عنه صفة بناء الكلام عليه وإنما هذا يحدث بقصد من المتكلم، والذي فيه ظاهرة نفسية؛ فقد لاحظ "جاري" أن المعلومات الجديدة توضع عادة في الموضع النهائي حيث يكون من السهل الاحتفاظ بها في الذاكرة فطالما أن المعلومة ليست مجهولة، ولا جديدة فلا ينبغي لها أن توضع في الموضع النهائي ومن هنا يتبين الجانب النفسي وهو السلوك اللغوي للمتكلم حيث يتبين وضع المعلومات

---

[1]- ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان،القاهرة، 1994، ص 59

[2]- ينظر : ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى،ص59.57

[3]- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 24.23

الجديدة في نهاية الكلام، أما المنهج المستخدم فهو التجريبي الاستقرائي[1]، و هذا ما هو ملاحظ في الكلام العفوي الملاحظ حقا، وفي العلاقة الإسنادية في اللغة العربية حيث يقدم المسند إليه على المسند.

لكن سلوك المتكلم مضبوط بمبدأ البناء الذي لا يخرج عليه، ومفهوم البناء هذا هو أن "تجعل عنصرا لغويا تابعا لعنصر لغوي آخر بحيث أنهما يكونان عنصر أوسع من مستوى أعلى"[2]، وهذا مع المبتدأ الذي لا يبنى على شيْ قبله، ولكن يبنى عليه ما بعده،"فالمبتدأ كل اسم ابتدئ به ليبنى عليه الكلام والمبتدأ أو المبني عليه، وهو مبتدأ ومسند إليه"[3]، فإذا قيل إذا ابتدئ بفعل أليس بمبني عليه ، قلنا أن المبني عليه الاسم لأنه هو المسند إليه، والفعل مسند، وهنا أيضا جانب نفسي هو سلوك المتكلم الذي أراد أن يكون السامع منتظرا لسماع من قام بالفعل، يقول ابن هشام "فإذا نطقت بالفعل تطلع السامع إلى معرفة الاسم الذي يسند إليه هذا الفعل"[4] فأخر المسند إليه لتقريبه إلى الذاكرة.

[1]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص52

[2]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، در القصبة للنشر/ ط2،الجزائر،2006، ص111

[3]- سيبويه، الكتاب، ج 2،ص 127

[4]- ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى و بل الصدى، ص125

2. فصاحة الكلام عند الخطيب.

تتلخص صفات الكلام الفصيح عند الخطيب في خلوصه من أمور هي:

أولا:البعد عن ضعف التأليف: فالضعف كما في قولنا:"ضرب غلامه زيدا"، فإن رجوع الضمير إلى المفعول التأخر لفظا ممتنع عند الجمهور لئلا يلزم رجوعه إلى ما هو متأخر لفظا و رتبة، وقيل أنه يجوز لقول الشاعر:

جزى ربُّه عني عديّ بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[1]

وقيل الضعف خلاف المشهور، ولم يقل خلاف المجمع عليه لأن المجمع عليه من قواعد النحو خطأ[2]، فالعدول عن القواعد من المسموح به للمتكلم نظما لقبض أثر من آثار المعنى كما أسلفنا الذكر، يمكن لنا به التأليف على خلاف المشهور وحده الذي ينتهي إلى عدم العدول عن القواعد المجمع عليها،والخطأ في هذا التجاوز مرده إلى المعاني النفسية الهائجة وبهذا يخرج الكلام عن سكة الفهم، و التوليد للكلام الفصيح إذا تفشى هذا الداء في الملكة اللغوية.

الكلام الفصيح تأليفا هو ما عبّر به عن المقصود وفق قواعد جرت عليها ألسنة العرب اطرادا وشهرة ما أمكن ذلك، وإن عدل عن الأصل فلا يخالف المجمع عليه والفصاحة تظهر قوتها أكبر في كثرة العدول عن الأصل مع مقاومتها لجذب الخطأ لها لأن في العدول جمال، وللخطأ في العدول عن العدول إلى الخطأ حبال، و الخطأ في الكلام يؤدي إلى حدوث عدم الفهم، والإدراك للكلام لأن الإنسان ابن اللغة المعينة يقطع الكلام على حسب قواعد لغته التي كان قد جردها في مرحلة اكتسابها.

---

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص26

[2]- الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح، ص 14

ثانيا:التنافر: منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة، كما في البيت الذي أنشده الجاحظ:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر[1]

ليس في هذا ثقل لمن درب لسانه على مثل هذا الكلام، فالثقل على اللسان أمر نسبي، لكن الأمر المطلق هو صعوبة الإدراك عند السامع لأنه يحتاج إلى عقل مطرق لإدراك وفهم هذا الكلام، وللسامع أن يؤتى من مثل هذا الكلام سوء الفهم، وإتعاب الذاكرة في تتبع الفصل بين الكلمات المكونة للكلام، إنّ لمثل هذا الكلام من الفائدة الفيزيولوجية العضوية في تدريب الجهاز النطقي الحظ الكبير، حتى أنه يشحذ الذاكرة ويدرب الدماغ على إدراك الكلام.

ثالثا: تعقيد الكلام: "وهو ألاّ يكون الكلام ظاهر الدّلالة على المراد به"[2] أي فهم السّامع مقصودا غير مقصود المتكلم فلا تفهم دلالة الكلام على حقيقتها، والشّرط هنا أن يكون الكلام العفوي العادي التواصلي، أو الإبداعي الحامل لرسالة، وهذا يخرج الكلام الذي على سبيل التعمية أو اللغز فهذا الكلام ظاهر الدلالة عند الفطن[3].

وهذا التعقيد يحدث بأمرين:

أما الأول فمتعلق بنظم الكلام، وهو أن يختل نظم الكلام ، ولا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه، كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه أبوه حي يقاربه [4]

---

[1]-الخطيب القز ويني، الإيضاح، ص26

[2]- المرجع نفسه، ص 28

[3]-المرجع نفسه، ص 28

[4]- المرجع نفسه، ص28

من المعروف أن المعاني نفسية، وأن الكلام صناعة بإرادة و اختيار من المتكلم، والمتكلم يخاطب مخاطبا، وقصده في ذلك إفهامه و إيصال مقصوده بعيدا عن اللبس في الدلالة وأقصى أغراضه أن يفهم المخاطب الكلام على مبناه الذي أفرغ فيه، ويبعده عن تأويل الكلام إلى معنى لا يريده، والمسؤولية هنا على عاتق المتكلم واقعة بأن يصوغ كلامه صياغة ملائمة، فكلما كان المعنى يحتاج إلى التأليف على مقتضيات الأصول من القواعد ألف على ذلك وكلما كان المعنى محتاجا غلى التوسع و العدول عن القواعد الأصول كان واجب المتكلم نحوه كذلك فإنما الألفاظ خدم للمعاني ثم إن الأول من ذلك يصلح للغبي و الثاني للفطن، ولهذا يقال إن ما يجوز في الشعر لا يجوز في النثر.

والخلاصة بينة واضحة إذ كلما اقتربت الصياغة من بساطة الأصول كلما كان عقل المعنى سهلا يسيرا متناولا، وكلما كان الكلام أقرب إلى التوسع و العدول عن الأصول كلما كان عقل المعنى محتاجا إلى إمعان النظر في التركيب، وإعمال الفكر في التحليل وهذا ما يعيق التواصل في اللغة العادية العفوية، وهنا نستخلص الفرق بين اللغة العملية التواصلية و اللغة الإبداعية التخييلية الجمالية[1]،وهذا فيه نظر لأن هناك من الظواهر الكلامية التي لها قمة في الجمالية تجري على ألسنة العامة من الناس.

ومع ما يلاحظ في البيت السابق من فصل بين المتلازمات، كالفصل البعيد بين المستثنى والمستثنى منه، حتى يغيب عن الذهن الاستثناء، وغيره من التجاوزات فهذا يؤثر على إدراك المعنى الصحيح الصريح، والنظم هو الترتيب العقلاني العرفي الذي تعارف عليه المستعملون في أنماط اللغة، وهذا أهم ما يهتم به مبحث آلية ترتيب الكلمات اختياريا، ووفق الحال والمقام والخطاب[2] ، وقد يكون هذا من قبيل عدم السيطرة على المعنى النفسي المراد التصريح به، أو التنميق اللفظي المخل بالعملية الإدراكية للكلام فتصعب السيطرة على

[1]- ينظر صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص72.71

[2]- ينظر صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، ص 134

المعنى باللفظ الملائم له، فلا تغلب اللفظ على المعنى فيضمحل رونقه، ولا تعمل بالعكس فتزل بك الملكة، وهذا هو مقصود الخطيب بخلو الكلام من التعقيد المعنوي واللفظي،وسنبين ما نقص منهما في أوانهما إن شاء الله .

III. فصاحة المتكلم ملكة شأنها الاكتساب

المسلم به عند أهل النظر "**أن** كل ما يوصف بالملكة أمتلك من طرف صاحبه بعد أن كان فاقدا له، وكذا القول على فصاحة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود..."[1]، وملكة الفصاحة بهذا تطلق على جميع الألسن، يقول **ابن خلدون** "اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانيٌ فلا بد أن تصبح ملكة متغززة في العضو الفاعل لها وهو اللسان"[2] والملكة صفتها الاستقرار في النفس لهذا يقول **الخطيب القزويني** "وقلنا يقتدر ولم نقل يعبر لتشمل حالتي النُّطق والسكوت"[3]، وبهذا نخلص إلى القول بعموم الملكة وشمولها على المعنى فكلما اختص المتكلم لمعنى وإرادة البيان وجد الملكة في انتظار احتضانه والإفصاح عنه، وهذا في نفس المتكلم إذا الملكة تمثل النفس متموقعة فيها، والمعاني عارضة.

والموجب ذكره في هذا المقام هو مصطلح **تشومسكي** الذي مفاده أن الملكة تتيح توليد ما لانهاية له من الجمل والأصح أن يُحدد قوله بالقول توليد مالا حدود له من الجمل إذا توفرت المعاني في الضمائر، والإرادات في الإفصاح، ولكن هذا لا يلغي قوله لكن مأخذه كان من فهم حديثه عن إمكانات الملكة اللغوية صوريا، ومأخذنا في هذا البحث الجانب العملي الإبلاغي لملكة الفصاحة للسان المعيَّن.

---

1 الخطيب القزويني، الإيضاح، ص31.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار العلم للجميع، بيروت لبنان، ص546

[3] الخطيب القزويني، الإيضاح، ص31.

1. *التصورات اللسانية الحديثة لاكتساب اللسان*

إن مرجع الفصاحة الأهم والغالب هو السمع يقول **ابن** خلدون "السمع أبو الملكات اللسانية كلها"[1]، وما يصل الطفل إلى مرحلة يبدأ فيها إدراكه بالنمو في مراحله الأولى حتى يتسلل إلى سمع آثار اللسان الذي ينظم كلام أهله ومن يحيط به من المتكلمين فيجد نفسه منقضا على اللغة اكتسابا وحتى اللغة فهي تفرض على سمعة نفسها وتبدأ عملية الاكتساب التي تستمر حتى موت الإنسان خاصة ما تعلق بالركام المعجمي للغة "والوصول إلى صفة التّفصيح التي تطلق على الفصحاء لها مرجع واحد وهو السماع"[2]ومادام الإنسان سامعا للغات وكلام غيره فهو لايزال مكتسبا "ويقضي المرء في إكتساب تلك الملكة اللغوية زمنا طويلا من حياته أو شبابه حتى يسيطر على قدر كبير من الألفاظ ودلالتها، وتتألف في ذهنه تلك الذخيرة اللغوية الدلالية وعلى أساس ما اكتسب من الألفاظ ودلالاتها يستطيع استنباط اللفظ الجديد على سمعه"[3]ونجد في اللسانيات المعاصرة وخاصّة النفسية منها ثلاث تصورات لاكتساب اللغة أو اللسان وهي:

أولا: التصور العقلي: خلفية فلسفة العقل وقد برز مع تشومسكي ويفترض هذا التصور أن الإنسان مفطور على تعلم اللغة فله نظام نحوي مسبق وما يسمعه من المحيط يختبره على جهازه النحوي وتكون المسموعات من الكلام مفعلات له، وهذا الفرض لم يثبت حتى الآن على النحو الذي نراه في تضاعف هذا البحث، أما الفطرية هي عمليات يمكن إثبات وجودها عمليا من خلال علم اللغة العصبي كالقدرة على الكلام"[4].

---

[1] -ابن خلدون، المقدمة، ص547

[2] -صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، ص5.

[3] -إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، مصر، 2004، ص56.

[4] -جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص9.

ومن الواضح من مسار اللسانيات أن لسانيات تشومسكي التوليدية التحويلية جاءت كرد فعل على ما قالت به المدرسة التوزيعية في مجال تحليل ودراسة اللغة، وحتى الآراء التي استقتها المدرسة التوزيعية من المدرسة النفسية السلوكية حول قضية الاكتساب اللغوي إذ قيل أن اللغة إنّما تكتسب كلية بمستوياتها محاكاة وتقليدا للغة الكبار، فانتقد **تشومسكي** استبعاد المدرسة السلوكية للعقل، وقد يكون موفقا في ذلك فإن لتفسير المدرسة السلوكية عملية اكتساب اللغة مفاسد عدة وإن كانوا قد جانبوا بعض الصواب في طريقة اكتساب اللغة.

وأغلب الظن أنّ **تشومسكي** قد عاب على هذه المدرسة تشبيه الإنسان بالحيوان وقد أثبت الفطريّة بقوله متسائلا "عن الأسباب التي تجعل العنكبوت قادرا على بناء بيته بهذه الكيفية التي تبدو لنا مثيرة ومعقدة، إن سبب قدرة العنكبوت يرجع بالدرجة الأولى إلى الفطرة وحدها ويتم هذا من دون تعلُّم وتدخل المحيط"[1] وهل من هذا المنطلق تختلف الحيوانات فبعضها له فطرة وبعضه لا؟ أم أنّ التشابه بين تعقيد اللغة، وتعقيد العنكبوت في بيته إنّ هذا الدليل ضعيف إن أوهن الدلائل العنكبوت، ويقول **تشومسكي** أيضا "إن الطفل يولد وله منطق صور يتزود بحسب **تشومسكي** بالأصول الكلية الثابتة، وإذا كان القول بفطرانية اللغة التي قال بها **تشومسكي** وتابعوه، والتي كانت تستند تجريبيا على السرعة التي حقق بها الطفل اكتساب اللغة، والتي اعتمد فيها الطفل على مادة علمية غير دقيقة يبدو أنها قد آلت إلى الأفول يقول **جون ليونز**: إن معظم المشتغلين بعلم اللغة النفسي ينظرون إليها اليوم على أنها أقل قيمة وأكثر ضعفا، عما كانت عليه عندما قدمها **تشومسكي** في منتصف الستينات لأول مرة. لأن عملية اكتساب اللغة عند الطفل تستمر عدة سنوات"[2] وربما هذا في ابتداء الكلام فإن اللغة تمر عبر مراحل حتى تكتمل عن المتكلم الواحد "فتؤخذ اللغة إعتيادا كالصبي العربي

[1]- مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان،2010، ص 35

[2]-ينظر مصطفى غلفان، المرجع نفسه، ص15.

يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات وتؤخذ تلقنا من ملقن، وتؤخذ سماعا من الرواة والثقاة ذوي الصدق والأمانة"[1]، والقول أنّه إذا كان للطفل نظام نحوي مسبق، وأن سماع الصيغ الأولية هو قدح لشرارة القدرة اللغوية، فالنحو التوليدي التحويلي لا يركز على الحدث الكلامي الإنجازي بقدر ما يركز على تلك القدرة الخفية لتوليد الكلام[2] وهذا هو الخطأ الذي ارتكب في النحو التوليدي التحويلي، ونفس هذه النقطة هي التي كانت نقطة القوة في الدراسات النحوية العربية إذ انطلقوا من الإنجاز اللغوي أو الآداء الكلامي وهذا الملاحظ في مؤلَّف الخطيب، إذا انطلق من فصاحة المفرد إلى فصاحة الكلام، وفي فصاحة الكلام من الفصاحة اللفظية الظاهرة إلى الفصاحة المعنوية الخفية، ومن هذا الحديث عن التصور العقلي في النظر إلى اكتساب اللغة يرفض الاتجاه الفطري إعطاء الأولوية للمحيط الخارجي في مسألة تعلُّم اللّغة، فالقوانين العامة المتحكمة في تعلم اللغات هي مبادئ داخلية[3]، والأخطاء التي يرتكبها الأطفال في مرحلة تعلم اللغة هي أخطاء قياسية ملاحظة بصفة واضحة تثبت عكس هذه الفرضيات إثباتا ليس بالهين، وتلاشي هذه الأخطاء يكون بسبب التصحيح التقليدي للطفل من خلال تكرر سماعه للصيغ الصحيحة من المحيط اللغوي التام، وهذا النقد موجه للتصور العقلي ليس استبعادا للدور الذي يلعبه العقل بعملياته تجاه اكتساب اللغة.

ثانيا: التصور السلوكي:

خلفيته فلسفية تجريبية، والسلوكية اتجاه من اتجاهات علم النفس ورائده واطسون يؤمن بما يلاحظ من السلوك، يستبعد كل العمليات العقلية النفسية المتدخلة في السلوك، تأثرت به المدرسة التوزيعية الأمريكية فقالت: "إن اللّغة عادة من العادات تكتسب بالمحاكاة والقياس

[1]-ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة.

[2]-ينظر، عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد، ط3، بنغازي، ليبيا، 2009، ص30.

[3]-ينظر: مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة...، ص34.

وعامل القياس هو الذي يفسر به الهيكليون كيف أن الإنسان –استنادا إلى صيغ لغوية معدودة سمعها فعلا- يستطيع أن يؤلف صيغا لم يسمعها قط في حياته، ولا تعرف في عددها حدا تنتهي إليه"[1] وهنا تظهر عملية اكتسابية مهمة هي شبيهة بعمل اللغوي إلى حد ما تتمثل في عملية تنميط الأمثال أي تجريد القاعدة الواحد باطراد الأمثال وعلى أساس النمط المجرد يحدث التوارد المعجمي، وهذا ما يسمونه بعملية القياس، والقاعدة عادة من العادات ولكنهم تناسوا القدرات الإبداعية للغة التي تتمثل في العدول عن القواعد في الكلام اتساعا ومجازا.

تتمثل نقطة الضّعف المركزية في التصور السلوكي لاكتساب اللغة في تفسيرهم لعملية اكتساب اللغة إذ قرنوا العملية الاكتسابية بنظرية المثير والاستجابة، وهما خارجيان على التوالي، وإن وفقوا في هذا لكن على مستوى اكتساب الطفل لعلامات لغوية لها الدلالة على أشياء محسوسة فيكون المثلث العلامي بالعلاقات التالية:

فعلاقة دال مدلول تمثل علاقة إحاليّة دلالية، وعلاقة مدلول مرجع تمثل علاقة تداولية اتصالية فبذكر الدال يثار الملول في الذهن، أما علاقة دال ومرجع فهي علاقة تعلميّة فيتعلم الطفل اسم المرجع حضوريا، ثم يثبت اسمه غيابيا، ويدقق الفارابي عملية رسوخ المصطلح اللغوي في ذهن متكلم اللغة الساعي إلى تحصيل مواضعاتها، بالارتكاز على المثلث الدلالي بحيث تطلق الألفاظ التي هي علامات فيشار بها إلى المحسوسات التي هي في الحياة فيحصل الاقتران الدلالي، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بإطلاق الدال مع حضور المرجع حتى يحصل المدلول وعندئذ يمكن للمرجع أن يغيب فيصبح الدال محيلا رأسا على المدلول دون اقتضاء حضور المرجع [2]، وهذا يعني أن العلاقة بين الدال و المرجع علاقة تعليمية.

[1]-عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص29.

[2]عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص135

ثالثا:التصور التكويني أو المعرفي:

هذه النظرية هي في قطر العلماء نظرية قد وفقت في تفسير الجانب الاكتسابي للغة ففي نظر رائد هذه النظرية جان **بياجي** أن الإنسان يتعلم اللغة تدريجا فتتطور لغته وفقا لنمو إدراكه، وهنا يفرض علينا قول الجاحظ في كتابه الحيوان فقد نبه إلى دافع الإنسان إلى تعلم اللغة إذ يقول " أنَّ من أعون الأسباب على تعلُّم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك"[1] وهذه الحاجة لا تفسر على أنها المثير كما رأينا هذا عند السلوكيين إنها الحاجة الإدراكية، التي تأخذ بيد اللغة إلى جهة تطور هذه الأخيرة، فلغة الطفل التي صاحبها المونولوج الفردي غير لغة الراشد الذي كان طفلا يحاور نفسه في الصَّغر فلغة الراشد لغة اجتماعية تواصلية وهكذا.

إن اللغة باعتبارها نشاطا ذا صبغة إدراكية يتم استخلاصه من مجرى تمثيلات لها عدد من الثوابت بخاصيتين:

أولا:الفردانية: تكون في التواصل لدى الإنسان المعين في تواصله مع العالم الخارجي حيث يكون العالم الخارجي له صورة لغوية في الذهن: تنطلق من إدراك المحسوسات إلى إدراك المجردات.

ثانيا:الثوابت الكلية للغة: هي شموليات يشترك في اكتسابها أشخاص المجتمع الواحد وليس المقصود بها الفطرانية كما أرادها **تشومسكي**.

واللغة عند الطفل تبرز بمراحل متعددة ولا تنتهي مرحلة اكتسابها ويميز نوعين من اللغة. اللغة حول الذات، ثم لغة اجتماعية صالحة للتواصل وهذا هو ملخص التصور التكويني.[2]

[1]-الجاحظ، الحيوان، ج5، ص290.

[2]

2. *إكتساب اللسان في التراث العربي.*

مقصدنا هنا هو المزج الذي له الأحقية العظمى في تعلم وتكوين الملكة اللغوية للفرد المتكلم الذي ما ينفك أن تبزغ لديه أصغر ومضة إدراكية حتى يهجم على اللغة تعلما وامتلاكا لزمام أمورها واستخدامها، واللغة بدورها تفرض نفسها على ابن حيزها التي تعيش فيه، فتنتقل اللغة من واد الفعل من محيط متعلم اللغة إلى واد القوة استقرارا في نفسه قبل أن يتقن صناعتها، والتصرف فيها ليخرجها بدوره من واد القوة لديه إلى واد الفعل في تواصله.

أولا:اكتساب اللغة وأولية الاستقراء:

إن متعلّم اللغة في حاجة دائمة إلى النّموذج اللّغوي لمحاكاته وصناعة ملكة خاصّة به بعد أن كان مفتقرا إليها جملة وتفصيلا فاللغة ليست ملكة طبيعية كما فسر بعض علماء العرب **وتشومسكي** يقول صاحب المقدّمة " ولذلك يظنّ كثير من المغفلين ممّن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانيّة في نظم الكلام تمكنت ورسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جميلة وطبع"[1] "وهذه الملكة إنّما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرّره على السّمع والتفطن لخواص تراكيبه"[2] ومن هذا فإن مدلول الطبع في الكلام إنما هو محاكاة النفس لكلام الراشد لتبلغ المقاصد الكامنة فيها إن تدرك الَّنفس أن السبيل إلى ذلك كما قال ابن جني الذي ما انفك يؤكد أن اللغة في أصل وضعها إنّما تمارس بالطبع الذي يغدو في الممارسة اللّسانية أداة توثب وهجوم على اللغة، وهذا ما تفسّر أن الإنسان المتعلم للغة مجتمعه يجدها بمثابة توقيف، لأن مرحلة الاعتباط زالت وحلت محلها مرحلة التلازم"[3] فلا يجد الإنسان من عمل لغوي اكتسابي سوى الاحتذاء والاعتماد على اللسان المحيط به

[1]-ابن خلدون، المقدمة، ص562.

[2]-ابن خلدون، المقدمة، ص562.

[3]-ينظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص255.

استعمالا، والإنسان بطبيعته مميز بلغة مميزة عن لغات الحيوان الأخرى حتى لا نسميه حيوان ناطق، فنكون قد احتذينا تعريف المناطقة له بهذا التعريف، ومن هذا المنحى **فتشومسكي** يملك هذه النظرة من خلال ما افترضه في وجود جهاز اكتساب اللغة(langage AqDeuce)

LAD وهي أداة أولية موجودة في ذهن الطفل " وهذه الأداة تأخذ كزاد لغوي للمعلومات اللغوية العامة هي تحديد طبيعة الأداة (déduire)"[1] وهذا الكلام لتفسير أن عمل الطفل في اكتساب لغته مشابه لعمل عالم اللغة في تفسير عمل الظاهرة اللغوية، و**تشومسكي** هنا انطلق من افتراض يحاول أن يثبته افتراض عقلي محض، ونسي أن الفرق بين الطفل المكتسب للغة وعالم اللغة في إطار معالجة الظاهرة اللغوية هو الشعور، فبحيث أن الأول لا يشعر بالقواعد، فإن عالم اللغة وإن كان في الأصل عنده عدم الشعور بها أيضا، فإنه يحاول أن يشعر بها عن طريق الاستنباط لا الاستبطان، إذ ينطلق من الكلام الواقعي الظاهر لا من القواعد المفترضة الضمنية.

والملكة تحصل بالتدرج من الاحتذاء إلى القياس وإعمال الفكر في التفطن لخواصها خاصة التركيبية ومن العناصر التي لا يدخلها القياس ما يحفظ حفظا لتكرره على السمع، وعلى وجه الخصوص الرصيد المعجمي، " دون أن يستوفوا كل شيء على ذلك فيوردونه لفظا منصوصا معينا لا مقيسا ولا مستنبطا كغيره من اللغة، ولا يتبينها نحو دار وباب وبستان"[2] ويعني بالكلام هذا أن مفردات اللغة لا تؤخذ قياسا بل احتذاء واعتمادا على المحيط اللغوي.

[1]- أليسون اليوت، التطور اللغوي عند الأطفال، تر: الصهبي علي بلحوق وبشير محمد الشاوش، إدارة المطبوعات والنشر، جامعة الفاتح، طرابلس- الجماهرية العظمى، 1998، ص16.

[2]- ابن جني، الخصائص، ج2، ص41-42.

وما يؤخذ قياسا قواعد التراكيب التي لها قواعد علائقيّة ظاهرة، وهذه لها من التدرج ما لها حتى تصير ملكة، "والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا وتعود له منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة"[1]،وبالتالي لأن الأهمية الأولى في اكتساب اللغة في التراث العربي مبنية أولا على النقل اللغوي من المحيط اللغوي، فالملكة دوما و أبدا قصد بها في التراث العربي الرّسوخ للشيء بعد ما كان غير موجود[2]، وعند رسوخ الملكة يظنّ أحدنا أن الملكة المعينة ذات طبيعة في الإنسان، فالإنسان في عملية اكتسابه للغة مقيّد بالمواضعة لا غير، وكأنّنا بذالك نعود إلى مسألة أصل اللغة، فاللغة تنتقل من المواضعة في نشأتها إلى تلازم المواضعة كأنّها توقيف عند اكتساب الكلام.

ثانيا:لزوم الصناعة

إنّه من المعلوم والمسلم به أن كتاب –**سيبويه**- كتاب تعليمي بامتياز ، وإن المنهجية التي سار عليها في كتابه، بحق منهجية دقيقة في تعليم اللغة، فهو لا يكتفي بالشاهد وحده ولا يكتفي بالقاعدة لو حدها بل إنه دوما يزاوج بين القاعدة و شاهدها، فإذا سبقنا بالشاهد فهي العملية التعليمية لأن الشاهد هو كلام العرب، وما يحاكيه المتعلم أثناء اكتسابه اللغة والقاعدة إنما هي مقيد لاختزال الشواهد وسرعة تجريد النمط، وإنشاء الرقابة اللسانية، وهذا ما يقصده علماء اللسانيات النفسيّة "اكتساب النظام المساعد"[3] وهو مفهوم لا يحتاج إلى البسط الكثير، والأمر لا يتوقف على كتاب **سيبويه** بل هو خاص أيضا بالكتب التعليمية في النحو العربي و هي كثيرة على غرار كتب **ابن هشام الأنصاري** و غيره...

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص553.

[2]- ينظر: محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم،دار الكلام للنشر و التوزيع، الرباط المغرب، 1990،ص 112

[3]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص236

وهذا وإن دلّ فإنّما يدلّ على تدخل العقل بعمليّاته التجريديّة التصنيفيّة في اكتساب نظام ثابت متفطن له" فإذا كان الكلام موضوعا فأن كل ما ينتمي إليه يجب دخوله في المدركات الحاصلة المكتسبة، بحيث لا يقدر عليه إلاّ من حصل له العلم بكيفية عمله.[1] فإن كان كذالك فهذا معنى الصناعة في اكتساب اللّسان يقول **القاضي عبد الجبّار**"اعلم أنّ الكلام من جملة الأفعال المحكمة التي لا تصحّ إلاّ من العالم بكيفيتها...وقد بينا من قبل أن الفعل المحكم على ضربين أحدهما يصير محكما بالمواضعات "[2] والثاني حتما سيكون واقعا بالصناعة أي بالإختيار والإرادة بالتصرف في نفس المواضعات بالملاحظة، والتفطّن للكيفيات.

[1]-محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، ص113

[2]- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ص191

الفصل الثاني:

بلاغة المتكلم من القصد إلى بلوغ البيان

- النحو على الحقيقة قصد
- التصور العقلي للملكة البلاغية و النمطية المنطقية
- البيان و بلوغ الإفهام

بلاغة المتكلم عند **الخطيب القزويني** "ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ "[1]،فهل هذه الملكة مختلفة عن ملكة الفصاحة؟ والرّاجح أنّها مختلفة عنها فهي أخصّ منها، من وجه أنّها تختصّ بالتّراكيب القصديّة-المقاميّة على حدّ سواء، لأنّ الفكر المتواصَل به إنّما يوفّيه التّركيب، وكما قلنا أنّ المقصود بالملكة ما كانت مكتسبة موضوعة في النّفس، وبلاغة المتكلّم إنّما اكتسبت ضمن ملكة الفصاحة والمراد بها الكيفيّات المخصوصة في أداء المعاني المضمرة في النّفس، وبلاغة المتكلم مستوى من مستويات الفصاحة؛ وليست ملكة موازية لها ووصفها **الخطيب** بالملكة لاستقرارها، أو بصفة أدق حال استقرارها.

إنّ البلاغة والفصاحة تلتقيان حال الوصول إلى التّركيب فيما بين الكلم للتعبير عن المقاصد بما يقدّمه النحو من خلال أحكام وقواعد تركيبية، وهذا ما سماه عبد القاهر الجرجاني بالنّظم، إذ يقول:" لا معنى للنّظم غير توخّي معاني النحو فيما بين الكلم".[2] والعمليّة النّظمية تصيّرنا من ملكة كان وجودها بالقوّة إلى ملكة تحوّل القوة فعلا لسانيا في مقامه المخصوص للكلام فيه.

ثم إنه لا بد من حضور العقل في عمليّة الإبداع اللغوي أو التوليد والتحويل كما كان يصطلح عليه **تشومسكي**، وهو ما نحلّ محلّه النّظم لمعنى مقصود في مقام مدرك، لأنّ **تشومسكي** يقصد بالتوليد والتّحويل الفرضيّة اللغوية للعمليّة الذهنيّة الحاصلة بين الملكة والأداء، في حين أنّ النظم واقع مشاهد يحضر " العقل بالفعل وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث تحصل ملكة الاستحضار متى شاءت من

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص34.

[2]- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح سعد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة، 2001م، ص433.

غير تجشم كسب جديد، لكن لا يشاهدها بالفعل"[1]، وملكة الاستحضار هي ملكة البلاغة متى صاحبت حدوث المعنى وإرادة الإبانة عنه، وعدم الشّعور بها لا يعني انتفاء العقل عنها بقدر ما يكون داخلا فيها من غير تكلّف، ولهذا ظهرت على أنها عادة.

I. النحو على الحقيقة قصد.

ذكرنا سابقا أن النّظم هو العمليّة التي تصيّر الملكة الإفصاحيّة القارّة في النّفس إلى ملكة تضمن للمتكلّم إظهار ما في نفسه من مقاصد بحال يدعو إلى ذلك الكلام وعماد الدوافع المعنى المنتج في النفس على الإطلاق.

ثم إن الكلام البليغ " مطابقته لمقتضى الحال فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التّنكير يباين مقام التّعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التّقييد، ومقام التّقديم يباين مقام التّأخير ومقام الفصل يباين مقام الوصل... وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام"[2]، وهنا يحضرنا إن لكل لفظ معنى، والمطابقة تعني أن يستخدم اللّفظ على أصل يكون بمعنى ملازم له، ولم نقل بالوضع لأنّ اللفظ قد يخرج عن الوضع، وهذا معنى مقتضى الحال أي ما يتطلبه المقام، أو الدّافع للكلام من تركيب مخصوص به معبّرا عنه ناقلا للقصد والمراد من الكلام على حقيقته.

يقول **الصّعيدي** في تفسير مقتضى الحال: "الحال هو الأمر الداعي إلى الكلام المتطلّب لخصوصية تركيب معيّنة تشاكل المراد بهذا الكلام ومقتضى الحال هو تلك الخصوصيّة ومطابقته الكلام بمعنى اشتماله عليه، فالذي ينكر قيام زيد و أكّد له القيام "إن زيدا قائم" فإنكار قيام زيد حال والتأكيد مقتضى الحال".[3] فلا بد من معرفة النحو في التعبير عن المقاصد وبلوغ أذهان السّامعين وأحوالهم وطبائع المقامات.

---

[1]- السيد الشريف الجرجاني، الحاشية على المطول، قراه وعلق عليه رشيد العرضي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971م، ص47.

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص31.

[3]- ينظر: الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح.ص20.

1. *أحكام النحو من مقدمات معانيه.*

ولأن نظرة الإنسان للغة نظرة تعتريها الحاجة إليها، كان النظام النحوي القصد والطريق المخصوص للكلام وطلب استظهار المعاني المركبة، وهذا النظام النحوي على وجه الخصوص هو المحلقن لدواليب الكلام بقواعده وأحكامه، الخادمة معانيه التي تتمثل في الكيفيات المحتواة في ملكة الفصاحة التي اكتسبت، وهي المتفطن لها عند سماع الكلام والمجردة أنماطها من ذلك.

إنّ هذه الكيفيّات هي مقتضي الحال، وأثناء استظهار معنى من المعاني يُجعل ما يناسبه من اللّفظ فيستحضر العقل الكيفية المعيّنة لذلك المعنى المعيّن، ويحدث الرجوع من الملكة الكلّية إلى الكيفيّة المخصوصة كأنّ المتكلم لا يعرف سواها، وهذا جليّ في حصر ابن خلدون لمراحل ثبوت الملكة ورسوخها في قوله حول الفعل اللساني أثناء كونه محاكى من متعلّم:" لأنّ الفعل يقع وتعود له منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاّ، ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة"[1]، و الحال لا توصف بالثبات وهذه الحال تكون إذا احتيج إليها وإلا فلا تكون.

ثم إنّ توليد الكلام يكون على ضوء هذه القواعد ويفهم على ضوئها، فيكون القصد راكبا للغة أولا، ويكون ثانيا مستخلصا من ركوبه اللفظ تفكيكا، وتحليلا عند السامع[2]،وهذا كله من ملاحظة اشتغال المتكلم على اللغة، لأن من قال هذا الكلام والكلام بنصه:"القواعد النحوية بمعناها الواسع جملة من المقولات النظرية التي تمثل الثوابت من النظام التركيبي وتعد قانونا أو معيارا ينبغي القياس عليه، وتوليد الكلام في ضوئه "[3]،فهذا النص قيل في

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص553

[2]-ينظر:محمود حسن الجاسم،القاعدة النحوية تحليل ونقد، دار الفكر، دمشق،2007، ص 28

[3]- محمود حسن الجاسم، المرجع نفسه، ص 28

سياق الحديث عن النحو كعلم نظري، وليس كعلم ضروري، والفرق بين العلمين جلي، وهو كالفرق بين القياس النظري العلمي _في تجريد القواعد، من قياس حمل الفرع على الأصل وقياس العلل النحوية-والقياس الطبيعي عند متكلم اللغة، وهو لا يظهر في هذا النص ولا فرق بينه و بين مصطلح التوليد عند تشومسكي، الذي نصّ على أن توليد الجمل يكون بقياسها على القواعد النحوية الثابتة في ذهن المتكلم، لكن الذي أخطأ فيه هو الجهاز المفترض الذي سماه-LAD- الذي هو مختص في اكتساب اللغة، وله قواعد مسبقة أصليّة يستطيع أنّ يميّز الخاطئ من الصحيح من الجمل النحويّة[1]، ومن هذا فقد أوغل تشومسكي في رد التوليد للكلام إلى أنماط عقلية افتراضية، وعلى الحقيقة فإن تشومسكي مادام يقول بفطرانية النظام النحوي، والفطرة في النفس محلها، فقد نفى عن العقل عملياته و هذا ظاهر.

ثم إن المتتبع للنحو العربي يرى أن ما أخذه النحوي في عمله، هو شبه محاكاة لعمل المتكلم المكتسب للّغة، والفرق بينهم وبين تشومسكي أنّ النّحاة العرب انطلقوا من واقع اللّغة بتجلياته المقاميّة، والمقاليّة بالاستقراء، ولا يجردون القاعدة إلا بتعدد شواهدها، واطراد تواردها، وما قول **عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي** لتلميذه **يونس بن حبيب** "عليك بباب من النحو يطرد و ينقاس" إلا بهذا المعنى، ولهذا الدور البالغ في الوصول إلى اليقين العلمي في النظرية اللغوية؛ سواء في مفهوم اللغة ثبوتا، أو على معرفة كيفية إنتاج اللغة و فهمها على المستوى الحيوي للظاهرة اللغوية، بأن أخذوا للمعنى نصيبه فعند اختلاف الأوجه الإعرابية لبعض الكلمات، ليس هناك مرجح لآرائهم أحسن من الرجوع إلى المعنى الذي أراده المتكلم قال إبراهيم مصطفى: "وقلَّ أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع؛ ولو أنه تَبِع هذا التبديلَ في الإعراب تبديلٌ في المعنى، لكان ذلك هو الحَكَم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ولكان هو الهادي للمتكلم أن يتبع في كلامه وجها من الإعراب"[2]، وإن كان من الدارسين من يذهب

[1]- ينظر من هذا البحث، ص 38.

[2]- مصطفى إبراهيم، إحياء النحو، ص هـ

إلى غير ذلك، فيرى أن النحاة يهتمون بالمعنى اهتمامهم بالإعراب، قال أحمد غالي: "فإذا أمكن للطالب بما يكتب ويدرس أن يدفع عن النحويين تهمة تجريهم وراء الإعراب من غير أن يحفلوا بالمعنى، فإنه بهذا، يكون قد أضاف إلى المكتبة العربية لونا جديدا من الدراسة، وهو يلمس المعنى الخصب الذي يعنيه النحوي من غير أن يصرح به، وإنما لفت إليه بالإعراب على غير ما يتبادر"[1]، والحقيقة أن النحاة لا يهملون المعنى إهمالا تاما، ولكنهم لا يهتمون بالفروق الدقيقة في المعنى للجملة إذا تغير إعراب بعض كلماتها، وهذا غير مقتصر على النحاة المتأخرين، ولكنه معروف منذ نشأة النحو العربي، وقد أشار **سيبويه** إلى ذلك فقال: "فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب"[2]، وما قال **سيبويه** ذلك إلا لمَّا رأى كثيرا من النحاة لا يهتمون بربط الإعراب بالمواضع التي تقال فيها الجملة.

فقد تجوز عدة أوجه إعرابية بشكل عام، ولكنها تخضع لما يريده المتكلم، وعندئذ فإنه يجوز وجه من الإعراب في موضع ولا يجوز الوجه الآخر، أو يجوز الوجهان ويكون أحدهما أحسن من

إن النحاة أخذوا على محمل الجد بمبدأين لدراسة اللغة، هما مبدأ الاطراد وعقل هذا المبدأ بالمنهج الاستقرائي، وقد كانت أول ظاهرة اكتشف اطرداها ظاهرة الإعراب، وهذا عندما كان **أبو الأسود الدؤلي** ينقط المصحف الشريف، فقد لاحظ أن أواخر الكلمات العربية العربية تنتهي بثلاث حركات إطلاقا هي:الضمة والكسرة والفتحة، لكنه لم يسمها هو بذلك[3]،وكل هذه الحركات علم على المعاني النحوية تقود إلى صياغة الكلام، وحمل المعاني العامة المرداة.

---

[1]- عبد العزيز عبده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، ط1. ليبيا: 1391هـ، 1982م، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، ص34.

[2]- سيبويه، الكتاب، ج2، ص80.

[3]- ينظر علي أبو المكارم، مدخل إلى تاريخ النحو العربي،دار غريب للطباعة والنشر و التوزيع، القاهرة،،2007 ص 70

ثم إن هذه الحركات قد التمست لها العلل بعد تغلغل المنطق في النحو العربي، وسمو المؤثر في تغير الحركات بالعامل اللفظي والمعنوي،وقد حمي وطيس الجدل فيها ومن اللغويين من ترك العامل على حقيقته اللفظية لكن يختلف مفهومه عنده عن باقي المفاهيم الأخرى أمثال ابن جني الذي ربطه بقصد المتكلم وهذا هو الأصح.

وبالحديث عن المنهج الاستقرائي والموضوعية التي تبتغى منه في أنه من قوامته الملاحظة الموضوعية، نتذكر المدرسة السلوكية فقد كان لها من الصحة في استخدام الذي يؤمن بالملاحظة الخالصة[1]، لأن الظاهرة اللغوية من الظواهر التي لها أثر ملاحظ، وقد قلنا سابقا أنّ مفهوم ابن جني حول اللغة قد أعطانا منهج الدراسة للغة، إلا أن المدرسة السلوكية قد أفسد النتائج بقانون المثير والاستجابة، وجعلت من الظاهرة اللغوية ظاهرة آلية بتركيزهم على السلوك المنفرد، لكن الذي تميز به النحاة عن المدرسة السلوكية أنهم لم يكتفوا بالملاحظة بل تجاوزوا ذالك لعقل قواعد التي يجري عليها السلوك، وذلك لطبيعة هدفهم المقوم للسان العربي الذي اكتنفه اللحن، فلا يمكن من وجهة نظر علمية الفصل بين الطبيعة الاجتماعية والفردية للغة، وللعلم فإن القواعد النحوية ذات طبيعة اجتماعية أكثر منها فردية ولا يكتفي اتصالها بالجانب المبنوي للغة، وهذا ما اتهم به النحاة العرب بأنهم مبنويون بدرجة كبيرة وهم ليسو كذلك لأنهم أخذوا المعنى بالحسبان.

الجلي في كتب النحو لمن أمعن النظر فيها أن النحاة لم يتوانوا لحظة في إبراز السمات المعنوية في تقعيدهم للنظام النحوي، ومثال ذلك مع بقائنا في ظاهرة الحركات الإعرابية، فقد استنبطوا لكل معنى نحوي عام يخصها، فقد خصوا الضمة بالعمد، وخصوا الفتحة بالمفعولات، وخصوا الكسرة بالإضافات وما يدخل فيها، والقصد بالعمد ما كان على أقل تقدير من الكلم بينه علاقة الإسناد، كالفعل والفاعل فالفاعل كلم تلاحظ مرفوع، ويصح

[1]- مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة...، ص24

القول بأنه مرفوع على الفاعلية، و المبتدأ والخبر كلاهما مرفوعان على الأصل، وقد أورد من نصوص النحاة حول معاني الحركات الإعرابية السامرائي ما يشفى به الغليل في كتابه معاني النحو[1]، والمعلوم من القول الذي سبق الذي يقول بأن معرفة المتكلم للنحو المعرفة الضمنية أو العلم الضروري، فهذه المعرفة تكون كمتصورات ثابتة، وما كان منه شيء من خواص العلم إنما محله العقل والعقل هو الذي جرد تلك المباني المعنوية الثابتة لتدل على المعاني الثانوية المنتجة في النفس.

2. المعاني النحوية نفي للآلية السلوكية

إن الفرضيّة السلوكيّة حول اللغة كما هو ظاهر في مؤلفات اللّسانيين تكاد تتفق على محورين أخذتهما الفرضية السلوكية كمبدأين لاشتغال اللغة، أما المبدأ الأول فهو الصفة الآلية للمعاملات اللغوية دون تدخل أي عمليات عقلية، أمّا ثاني المحورين فهو نفي المعنى عن الدرس اللساني، فكيف تشتغل اللغة بدون معنى وقد وضعت للتعبير عنه؟ لكنهم سموا ذلك بالدافع للكلام، فالملاحظ أنهم لم يقصوا المعنى النفسي لكن الذي نفوه هو المعاني النحوية التي تلعب دور الوسيط في تشفير وفك تشفير الرّسالة اللّغوية، وبالتّالي فكلّ مثير كما يسمون ذلك داخلي أو خارجي يولد استجابة مباشرة، و نحن نقول أن الأصل في كل مثير المرور على العقل فيدرك على مستواه، وبهذا تصبح كل المثيرات معاني، و الاستجابة تكون بلا شك مرتبطة بالإرادة لا غير، ولعل أهم شيء يؤخذ على المدرسة السلوكية هي نقل تجارب حيوانية إلى عينات إنسانية، وبالتالي تجعل اللغة أصوات يوقف عليها في حدها"واللغة ليست مجرد الأصوات المسموعة من الأفراد الآخرين، وإنما هي في حقيقتها المعاني والأفكار التي تدل عليها تلك الأصوات، ولعل الحيوانات إذا كانت لا تتكلم فليس لأنها لا تستطيع أن تتلفظ ببعض الألفاظ المسموعة، وإنما لا تملك الأفكار و المعاني ما تعبر عنه بالكلمات، والإنسان يستعمل اللغة لأن لديه من الأفكار و الأحاسيس ما يضعه في

[1]- ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو،ج1،دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، ط1،عمان، الأردن، ص.23

هذه القوالب اللفظية، ويفصح به إلى الغير بصورة من الصور الكلامية"[1]، ولا يمكن للإنسان أن يفهم كلاما ويتفاعل معه إن لم يدرك بالعقل وفق ما حصله العقل من معاني نحوية و جردها وصيرها ملكة تحلل الكلام للأذهان

إن مفهوم الآلية التي وقعت فيه المدرسة السلوكية عند تفسيرها للظاهرة اللغوية التواصلية، ينبأ أن السلوكية تربط بين النفس المنتجة للمعنى مع الفعل اللساني بدون واسطة لكن المقصود بعلم المعاني هو معرفة القواعد، والأنماط التي تتحكم في السلوك اللغوي، بل هي معرفة الخبرة اللغوية في العدول عن القواعد النحوية وملائمة الحركية النفسية المعنوية دون الوقوع في الخطأ، يقول الخطيب:"وما يحترز به عن الأول- أّعني الخطأ في تأدية المعنى المراد- هو علم المعاني"[2]،والملاحظ أن النظرية السلوكية تعترف بتشاكل اللغة والفكر وقولهمّ أن اللفظ عادات و الفكر لغة تحت الكلام [3]، وإذ كان الكلام لا يصدر هكذا لكن هذا لا يعني أن النظرية السلوكية لم تقل بالعلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر، فاللغة معبرة عن الفكر لكن تفسيرهم العملي بالمثير و الاستجابة هو جناية في حق اللغة، إذ أن الكلام ذو علاقة مباشرة مع دافعه الذي هو نفسي، وتسمى النظرية السلوكية أيضا بنظرية الباعث تقول جوديث جرين: "و نظرية الباعث ورد الفعل تبدو أكثر تأهبا لتناول الدوافع حيث تكمن النزعات والعوامل المثبتة مع ذلك، فمن الناحية العلمية تأخذ دوافع البشر من تجارب لحل المشكلات كأشياء مسلم بها، وعلى أية حال فإنه ليس من اليسير إيضاحها بإبعادها عن المساهمة في التجارب النفسية"[4]، وهنا تظهر حقيقة متعلقة بالنظرية السلوكية هذه النظرية التي تعطي الجهد العظيم في عملية التعلم عبر تحسين السلوك تجاه الدوافع التي تتطلب مستجدات في الاستجابة النوعية، وأصل الدافع وراء كل سلوك وهذه حقيقة لكن الذي لم

[1]- أحمد بن نعمان،التعريب بين المبدأ و التطبيق،الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ،ص 68

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص34

[3]-ينظر مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة...، ص19

[4]- جوديث جرين، التفكير و اللغة، تر: عبد الحليم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص31

توفق فيه المدرسة السلوكية في دراسة اللغة هو عدم دراستها للكليات النحوية و الإبداعات النظمية، وهي بذلك تركز على الجزئيات في إشباع الدوافع المعنوية بالسلوكات اللغوية .

يقول الخطيب "ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ...."[1]، والظاهر أن الاختلاف غير التفاوت ومقتضى الحال هو الدافع أو المعنى، أو قصد المتكلم، وذلك مبسوط إلى غير نهاية، والمقامات متفاوتة أي محصورة تعبر على ما لانهاية له من المعاني، ثم إذا أتينا مثلا إلى مقام الحذف نجد شخصا يحذف للتحقير، وشخص آخر يحذف تعظيما، وهذه الجزئيات التي ركزت عليها المدرسة السلوكية، دون نظر إلى ما يتيح للمتكلم تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ودون نظر إلى أن المتكلم يدرك مقام الكلام، وهذا ما ساقه الخطيب في كتابه من قول عبد القاهر الجرجاني إذ يقول"إن مقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر الجرجاني بالنظم"[2]،وهذا بتتبع معاني النحو، والضامن لمعانيه هي أحكامه بلا شك.

إن استنباط قوانين النحو المؤدية إلى فهم اللغة، ونظمها إنما هو العلاقة بين كلمات النظام التركيبي، وهذا ما أهملته السلوكية، والملاحظة هنا سهلة، ففي الجملة التالية" وعين القوم سافر يستطلع الأخبار."[3] فالعين لا تسافر أسند إليها فعل السفر،لكنها جزء من الإنسان يبصر بها، فلا تكون هنا إلى بمعنى الجاسوس، وهذا الترابط اللغوي تجعل الجمل تفهم فهما يتجاوز الآلية السلوكيةُ، ثم إن المثال الذي ضربته السلوكية في تمثيلية الفتاة التي رأت التفاحة، وقطها صديقها[4]، وقدمها إليها تقف ضد الآلية السلوكية المجحفة، لأن الفتاة لم تطلب من صديقها الإتيان لها بالتفاحة صراحة، فكيف فهم جوعها وأحضر لها التفاحة،

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص31

[2]- المرجع نفسه، ص32

[3]-محمود حسن الجاسم، القاعدة النحوية تحليل و نقد، ص 100

[4]- ينظر مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة...، ص 26.

وذلك بإخراج الكلام عن مقتضى ظاهره وهذا منه ويفهم المعنى من مستتبعات الكلام كالمقام على سبيل المثال لا الحصر وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، "وكثيرا ما يخرج على خلافه، فينزل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر"[1]، وهذه سمة في اللغة التي هي من الوظائف المعنوية لها حيث يفهم القصد لا بالكلام بل بمعنى الكلام، وقد يقول قائل أن الراد بخروج الكلام على مقتضى ظاهر عند السامع خطأ في الإدراك فهي عيب في اللغة، قلنا أن هذا صحيح لكن الفائدة منه هي إذا أخطأ المتكلم في التعبير عن قصده، وأخرج السامع كلام المخاطب على غير ظاهره بإعانة دلالة المعن أو لإعانة المقام له فقد فهم قصد المتكلم وهذه هي فائدته.

والخصوص بالذكر هنا أن فهم الكلام بمعنى المعنى يبرر لما كانت المباني المحدودة للغة تعبر عما لا حصر له من المعاني الثانوي النفسية، يقول الجاحظ:" ثم- اعلم حفظك الله- أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة غلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة"[2] مقصد الجاحظ من هذا أن اللغة طرفان، طرف مبنى وطرف معنى، وما بينهما معاني النحو التي يقع بها الفهم فمعاني النحو لا ممدودة ولا محدودة، وبذلك تحدث الكفاية فلا الألفاظ تعجز عن حمل المعاني والتعبير عنها، ولا المعاني تموت لقلة المباني، والحكم في ذلك بالعقل المدرك للكل المعان و المباني، أو الملكة اللغوية والمعاني النفسية والملابسات المقامية

II. *التصور العقلي للملكة البلاغية و النمطية المنطقية*

نحن نقصد هنا النظري التوليدي التحويلية لرائدها تشومسكي، فقد اشتهرت هذه النظرية بالرواج الكبير في عالم اللسانيات عامة، واللسانيات النفسي خاصة إذ يجمع الكثيرون على

[1]-الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 47.

[2]- الجاحظ، البيان و التبيين، ص 76.

أن هذه النظرية قد فتحت البوابة صراحة لعلم النفس للولوج إلى الدرس اللساني، وأنها أقدمت على دراسة ما عجزت عنه اللسانيات البنيوية الأوروبية والأمريكية، حيث أنها انتقلت من السؤال عن ماهية اللغة إلى السؤال عن كيف ننتج اللغة؟

للإشارة إن المدرسة التوزيعية االأمريكية ظهرت كرد فعل على المناهج الإستبطانية في دراسة اللغة، ومدرسة تشومسكي التوليدية التحويلية قامت كرد فعل على المنهج الوصفي الذي تبعته المدرسة التوزيعية ففي نظر تشومسكي أن الفشل الذي أصاب المدارس البنيوية هو عدم ابتكارها لمناهج مناسبة لدراسة اللغة[1]، والمعلوم أنه في زمن ظهور المنهج الوصفي لدراسة اللغة من طرف فرديناند ديسوسير، وتأثر بلوم فيلد بمنهج السلوكيين وفلسفة العلوم التجريبية كان ذالك لفك النمطية المنطقية الأرسطية التي غل بها النحو[2]، وهذه الأخيرة انتفاضة ضد الاستبطان الذي يقوم عليه المنطق أي خذ بما يمليه عليك عقلك الإفتراضي "فقد اهتمت معظم البحوث التي أجريت عن التفكير الاستنباطي بالقياس المنطقي، والذي يمكن من خلاله استنتاج إحدى النتائج الصحيحة إعتمادا على مجموعة من المقدمات المنطقية"[3]، وتأثر تشومسكي أيضا بعلماء النفس الذين يهتمون بدراسة الحد والسبب والتفكير عندهم يمثل القدرة المثالية التي وصفها علماء المنطق، وعلى هذا فأن نظرية تشومسكي ذات افتراظات عديدة، ومن أشهر هذه الافتراضات، إفتراضه لوجود نظام نحوي فطري، وهذا الذي لم تثبته التجارب.

1. القول في تقسيم الكلام عندالخطيب القزويني

الكلام في المتعارف خبر وإنشاء يقول الخطيب " ووجه الحصر: أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول

[1]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 103

[2]- المرجع نفسه، ص 103

[3]- جوديث جرين، اللغة و التفكير، ص 91

الخبر و الثاني الإنشاء"[1]، والأخبار كقولك "جاء زيد"، فإن كان قد جاء حقا فهو صادق وإلا فالخبر كاذب، وبالتالي فالخبر يحتمل الصدق والكذب، والإنشاء ما لا يقاس بالصدق والكذب، وأغلبه يعبر عن طلب، كالأمر، والنهي، و غيره...

وافق تقسيم تشومسكي للكلام هذا التقسيم فذكر ذلك في كتابه اللسانيات الديكارتية وكان كالتالي:"أما الأولى عنده: التعبير عن أدراك الذات للمعاني أو الفكر أي فعل الإثبات.

أما الثانية: التعبير عن إرادات الفرد مثل عمليات الاستفهام، والأمر، والطلب، والرجاء والنفي "[2]، والسؤال المطروح هل الإثبات خاص بالجمل الخبرية؟، والجواب عنه بلا، لان الاستفهام، والنفي، وغيرها من الأساليب المعبرة عن الإرادة والحاجة أيضا لها جانب يقول أن المتكلم يثبت وجود الرغبة في معرفة الفهم من الاستفهام، ويثبت وجود الرغبة في طلب شيء ما بالأمر.أما السؤال الثاني الذي يطرح نفسه، ما المقصود بالإثبات وما فائدته؟

والجواب عنه بالآتي، مضاد الإثبات النفي، فلو أخبر المتكلم بشيء صادق فهو يثبت حصول الخبر عنده، فإذا كان المخاطب أيضا عالما بها سميت بلازمة الفائدة، وغلا سميت فائدة الخبر[3]،وكذلك لو أراد المتكلم أن ينفي فكرة خبرية أثبت أيضا أنها منفية عنده، والإنشاء داخل في الإثبات من هذا الوجه.

مقصود تشومسكي من تقسيم الكلام على هذا الوجه صحيح بين أن لم يكن الإثبات عنده بمعنى مطابقة الكلام لاعتقاد المتكلم الذي نبه عليه الخطيب وأبطله، والقول إن كان مقصود الإثبات عنده متعلقا بطلب التصديق بالأمر المخبر به، فهذا داخل في الاعتقاد، و

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 38

[2]- مصطفى غلفان وآخزون،اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث،إربد، الأردن، 2010، ص11

[3]- الخطيب القزويني، المرجع نفسه، ص 42

الاعتقاد تقسيم للخبر الكاذب بخصوصه لا الخبر على الإطلاق، ومع هذا لا يمكن للخبر إن لم يطابق الواقع و طابق الاعتقاد أن يكون صادقا[1]، وهذا لأمرين:

- أن العقل لا يصيب دائما في مدركاته.
- أن الاعتقاد لا تطرد موافقته للواقع الذي حصر فيه صدق الخبر وكذبه

والحاصل أن تشومسكي لم يقصد بالإثبات ما سبق ذكره، ولكنه أصاب، إذ لو أخبرت شخصا بخبر بخبر يجهله يعتبر فيها إثبات وجود الفكرة قبل إثبات فائدة الخبر، وفي لازم الفائدة، يكون الخبر محصورا بالإثبات، يقول الخطيب:" مع أن سماع الخبر من المخبر كاف في حصول الثاني منه، ولا يمتنع ألا يحصل الأول من الخبر نفسه عند حصول الثاني منه لجواز حصول الأول، وامتناع حصول الحاصل"[2]، والمراد بحصول الثاني يعني علم الخاطب أنك تعلم الخبر، والقصد بحصول الثاني أي لازم فائدة الخبر يحمل معه فائدة الخبر، ولابد للخبر من توفر على علاقة إسنادي أي إسناد حكم لمحكوم له وأحوال الإسناد عديدة تتفرع عنها على حسب المعاني المرداة.

2. الفرضية التحويلية والمعاني النحوية

أثبتت التجارب المعملية أن اختبار الفرضية التحويلي غاية في الصعوبة هذا لأنهم "استخدموا اللغة استخداما صناعيا أي أن نطلب من المفحوصين أن يقوموا بالتحويل من جملة إلى أخرى، من البناء للمعلوم مثلا إلى البناء للمجهول، أو من النفي إلى الإثبات دون النظر إلى معاني الجمل لكن عندما يقوم المفحوصون الأكثر اعتيادا من حيث استخراج المعنى من الجمل، تختفي أيّة تناظرات دقيقة بين التعقيد التحويلي والأداء ولا تتغير الصعوبة النسبية لتحويلي النفي، والبناء للمجهول تحت الظروف المختلفة فحسب بل إن هذا

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص 42

[2]- المرجع نفسه، ص 44

بدوره يتفاعل مع العامل الدلالي الخاص بقيمة الصدق"[1]، ومنه فإن المبدأ النفسي في العملية التحويلية من مبنى تركيبي لآخر هو تقفي أثر من آثار المعنى، ولهذا سمي الاستعمال الواقعي للنحو بمعاني النحو، والملاحظ في باب علم المعاني في كتاب الإيضاح أن متعلقات الإسناد الخبري كلها تمثل عدولا عن الأصل لالتماس معنى أو مراعاة لمقام أو حالة مخاطب، إن القائمون على التجربة حاولوا أن يلاحظوا العمليات التحويلية بفصل المباني عن المعاني، وهذا ما أدى إلى تناقضات أي أن هناك انجذاب للمفحوص إلى الناحية الدلالية من وجهين:

- أما الوجه الأول فهو دلالة البني التركيبية قبل التحويل
- وأما الوجه الثاني فهو دلالة البنية التركيبية بعد التحويل

والحاصل أن عملية التحويل تسمى في التراث العربي الاتساع أو المجاز، وهو بنفس المعنى مع النظم الذي هو توخي معاني النحو أي التماس الاختيارات التي يمنحها والحذر من تجاوز المسموح فيه لصياغة الكلام، أي المزاوجة بين المعن المقصود وطريق صياغة الكلام المعهود، وفي عكس الصعوبة الملاحظة في التجربة السابقة الذكر ولإثبات أن السبب في عدم نجاح التجربة هو غياب العامل الدلالي نسوق نص التجربة الآتي"قام واسون ببحث التحويلات في السياقات التي يكون من الطبيعي استخدام النفي فيها، عندئذ قد تختفي الصعوبة التي ترجع إلى استخدام النفي، أما عن أحد السياقات التي يكون من الطبيعي أ من المتوقع استخدام النفي فيها يكون عندما يستخدم النفي لتصحيح تصور خاطئ، فهناك أكثر من سبب لأن نقول:القطار لم يتأخر هذا الصباح، إذا كان القطار يتأخر عادة، ومن ثم يستخدم النفي لإنكار توقع غير صحيح بأنه تأخر هذا الصباح كالمعتاد[2]،إذا وكما سبق فالتحويل اتساع استعمالي لمطلب دلالي، ثم اعلم أن تسامي الأبواب النحوية" مستخلصة من

[1]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص 44

[2]- جلال شمس الدين، المرجع نفسه، ص 109.108

معاني العناصر التركيبية، فمصطلح الفاعل مثلا يشير وفقا للعرف النحوي إلى الذي يقوم بالفعل أو يتصف به"[1]،وعلى مثله القياس في المفعول به والمفعول فيه، وغيرها من الأبواب كمعنى الحالية ،والإضافة.

لما وردت أبواب علم المعاني في كتاب الإيضاح، يلاحظ الملاحظ أن أغلب هذه الأبواب تحويلات تصيب عمدة الكلام من تقديم وتأخير، وذكر وحذف...ولكل حركة إتساعية في التركيب حركة في المعنى، ففي حذف المسند إليه مثلا يقول الخطيب:"أما حذفه فإما لمجرد الاختصار، وإما لذلك مع ضيق المقام، و إما لتخييل أن في تركه تعويلا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وإما لاختيار تنبه السامع له عند القرينة، أو مقدار تنبهه.

وإما لإيهام أن في تركه تطهيرا له عن لسانك أو تطهيرا للسانك عنه، وإما ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه الحاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاءا، وإما لاعتبار آخر لا يهدى إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم، كقول الشاعر

قال لي: كيف أنت؟ قلت:عليل سهر دائم، وحزن طويل"[2]، فهذا التحويل الطارئ على عمدة الكلام التي هي مسند ومسند إليه له دافع معنوي، وذالك كما أثبتته التجارب المذكورة سابقا أما عن القول في ما قال القزويني أن الوجوب في الحذف أن تكون قرينة دالة على الحذف، وقوله تطهير له عن لسانك؛أي تعظيما وقوله تطهيرا للسانك عنه أي تحقيرا أو أن المسند مختص به كقولنا "خلق الإنسان" فالله هو المسند إليه وهو معروف وفي تركه تعويل على شهادة العقل.

[1]- محمود حسن الجاسم، القاعدة النحوية تحليل و نقد، ، ص 104

[2]-الخطيب القزويني، الأيضاح، ص62

والأمر كذلك في التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وكل ما يتصل بعمد الكلام على مستوى الإسناد الاسمي والفعلي، فلكل منها غرض معنوي مستفاد من ذلك، ولا يمكن ملاحظة هذه التحويلات بالنمطية الافتراضية،ولهذا عيب النموذج التحويلي المعياري الذي فسر به تشومسكي العملية الإبلاغية هذا النموذج يعتبر الدلالة مكونا من مكونات النحو واستقلالية التركيب عن المعنى، والقول بتوليدية التركيب وتأويلية الدلالة، ووجود مستوي تركيبي هو البنية العميقة[1]، والقول في هذا أن البنية العميقة فيها تكون الدلالة وقد يكون له من الصحة النصيب الوافر، لكن أذا كانت الدلالة من مكونات النحو فكيف نفسر استقلالية التركيب عن المعنى؟، وهذا التركيب وكل ما يعتريه من تحولات وعدول عن قواعده الأصول هو سبب المعنى فتشومسكي هنا فصل بين الدلالة والتركيب، وجعلت الدلالة تابعة للتركيب عند السامع ولو كان التركيب معقدا، وما يهم تشومسكي من هذا المنحى هو العمليات التحويلية أما الدلالة فهي تأويليةّ، وعلى السامع أن يتحرى دلالة البنية العميقة من خلال البنية السطحية، و القول ألا فصل بين ما فصل بينه تشومسكي أي بين العمليات التحويلية و الدلالة التأويلية، " وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في الشيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، إن لم يقدم فيها ما قدم، ولم يؤخر ما أخر، وبدئ بالذي ثني به...لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة"[2] فالقصد هو الجامع بين العمليات التحويلية و المعنى ولا يتصور الفصل بينهما البتة.

ولنعرض تصور تشومسكي للعمليات التحويلية ضمن البنية العميقة لأن هذا ما تحتويه البنية العميقة من عمليات نفسية عقلية

أ/ في هذا المستوى يمثل للعلاقات النحوية(فاعل + مفعول به) في صيغة مقولات نحوية أساسية (ج- (جملة- مس) مركب اسمي- ف (فعل)، ولما كانت البنية العميقة تتضمن

[1]-ينظر: مصطفى غلفان،اللسانيات التوليدية...، ص123

[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 364

(جملة) فإن تصورها يحدد مفهوم الجملة البسيطة، أو الجملة النواة و هي الجملة التي لا تحتوي جملة أخرى مدمجة

ب/مستوى البنية العميقة يمكننا من أن نصوغ التعميمات الملائمة المتعلقة بقيود الانتقاء والتوارد

وهذا التقسيم والتنميط لتوليد الكلام هو ما ثارت عليه نظرية الدلالة التوليدية وقالت إن هذا التفسير تأباه اللغة في طبيعتها الدلالية المتحركة، و التوليد يكون في الدلالات لا البنيات التركيبية. فلم يولي تشو مسكي. أهمية للإبداع اللغوي إذ الأساس في الإبداع اللغوي مرتبط بالتوليد الواقعي للكلام في مقامه المخصوص أو ما يعرف بالتوليد الدلالي عند مدرسة الدلالة التوليدية التي إنتقدت تشومسكي بشدة في مفهومه حول البنية العميقة، وأول من انتقده زعيم هذه النظرية "لايكوف"

البيان وبلوغ الإفهام

البيان من أشرف الفنون في التراث العربي ،وقد أولي عناية كبيرة من قبل البلاغيين أما عن أشهر تعريف له فنستشفه من كتاب البيان والتبيين، إذ يقول عنه الجاحظ:"والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ،وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ،ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان"[1] ولقد ذكر الجاحظ قبل تطرقه لتعريف البيان كيف أن المعاني مستورة خفية ،فوضعت الألفاظ للدلالة عليها والإبانة عنها.

[1]_الجاحظ، البيان و التبيين،ص76

1. البيان عند الخطيب

لقد تطرقنا في الفصل الأول إلى موضوع الإبداع حين الوصول إلى الكلام للتعبير عن المقصود ،ورأينا أن الكلام الفصيح لابد من خلوه من التعقيدين اللفظي والمعنوي، وقد قال الخطيب في دوائيهما ما نصه "وقد علم مما ذكرنا أمران:

أحدهما: أن كل بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ.

الثاني:أنّ البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد والتمييز الكلام الفصيح من غيره، والثاني أعني التمييز _منه ما يتبين في علم متن اللغة، أو التصريف، أو النحو، أو يدرك بالحس، وهو ما عدا التعقيد المعنوي.

وما يحترز به عن الأول_أعني الخطأ في تأدية المعنى المراد_ هو علم المعاني.

وما يحترز به عن الثاني _ أعني التعقيد المعنوي_هو علم البيان"[1]، وعلم البيان من هذا هو المعرفة بالتصرف في معجم اللغة من حيث الاستعمال اللغوي للألفاظ على قدرها الوضعي، والمجازي لأن اللفظ له وجهان في الاستعمال في الكلام إما على الوضع الذي هو عليه، أو استعماله خارج المعنى الذي وضع له يقول الخطيب: "ودلالة اللفظ : إما على ما وضع له، أو على غيره.

والثاني إما داخل في الأول دخول السقف في مفهوم البيت، أو الحيوان في مفهوم الإنسان أو خارج عنه خروج الحائط عن مفهوم السقف أو الضاحك عن مفهوم الإنسان، وتسمى الأولى دلالة وضعية، وكل واحدة من الأخريين دلالة عقلية، وتختص الأولى بدلالة المطابقة، والثانية بدلالة التضمن، و الثالثة بدلالة الالتزام."[2] أما عن الوضع فهو مما ليس فيه بد من التوضيح لأن هذا لا يحتاج إلى اللزوم بأن تختلف الدلالات فيه فهو لما وضع له في

[1]_الخطيب القزويني، الإيضاح،ص35.34

[2]-المرجع نفسه، ص 246

الأصل، وهذا معنى دلالة المطابقة، وأما الثاني أي ما هو داخل دخول السقف في مفهوم البيت، أو خارج عنه كخروج الحائط عن مفهوم السقف، فالثاني أي دلالة التضمن فقد شبهه بدخول السقف في مفهوم البيت أي أن اللفظ ومعناه الذي استعمل فيه خارج عن الوضع لغة داخل فيه معنى، وهذا فإن السقف جزأ من البيت وهذا معنى التضمن، أما الثالث أي دلالة الالتزام فالمعنى بعيد عن اللفظ لغة ومعنى وشبهه بخروج الحائط عن مفهوم السقف لكن الفهم العقلي للعلاقة تستلزم أن يفهم المعنى كما أريد به بواسطة المعنى لأن السقف والحائط يجمعهما معنى البيت، وهذا معنى الالتزام.

2. **القول في مفهوم البيان:** إن ما نلحظه من خلال تعريف البيان عند الخطيب هو الشيء الجديد إذ الفرق بينه وبين تعريف البيان عند الجاحظ في القول الذي ابتدأنا به في مدخل هذا المبحث، فعند الجاحظ هو المفهوم العام للبيان وفيه فروع ألا تر أنه بعد ذلك التعريف ذكر خمسة أشياء تحقق البيان فيقول:"وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها النصبة ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة، وهي الحال الدالة"[1]، فالجاحظ هنا تكلم عن الأصناف العامة للبيان أما ماذكره الخطيب هو الحالة البياني الخاصة بالبيان باللفظ على خصوصه أي الطرق المختلفة في الإبانة عن المعنى باللفظ، وبين فيه طريقان عامان، وطرق فرعية عن الطريقان العامان والتالي سينين ذلك.

يقول الخطيب في تفسير تعريفه للبيان بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليها، وقد سبق إيراد هذا المفهوم فيما سبق:" ثم أيراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية؛ لأن السامع إذا كان عالما بوضع الألفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض، وإلا لم يكن كل واحد منها دالا.

[1]- الجاحظ،البيان و التبيين، ص 76

وإنما يتأتى بالدلالات العقلية؛ لجواز لوازم بعضها أوضح لزوما من بعض"[1]، فالطريقة الأولى في لبيان باللفظ عن المعنى، هي الوضع وهي عادية أصلها معرفة المعاني اللغوية، أما الثانية فهي المجاز أي ما جاز التعبير به من الألفاظ على غير ما وضعت له في الأصل لقيام قرينة تمنع أرادة المعنى الوضعي لها، والقرينة العقلية هي أم القرائن لأن في العقل تحدث تصورات المعنى.

إن الطريقان العامان في التعبير عن معنى واحد كما ذكر الخطيب طريق وضعي وآخر مجازي، وبغض النظر عن الترتيب الأفقي الذي يمليه علينا النحو باختياراته التحويلية بين آفاق الاتساع وعدم الوقوع في الخطأ، وهذه كما ذكرنا فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني فإن التوارد المعجمي يكون على المستوى الرأسي في اختيار الألفاظ، "ومن الممكن أن نوجز العمليتين من خلال وجهة نظر الجرجاني، ووجهة نظر الأسلوبية في المعنى والدلالة فالمعنى يشمل المستوى الأول الذي يختص بالصواب والخطأ، والدلالة تأتي في المستوى الثاني الذي يقوم على الاستبدال الذي يخضع بالضرورة للسياق و الإيحاء؛ فالكلام على ضربين: ضرب يمكن أن تصل إليه بإدراك المعنى المباشر كأن تخبر بخروج زيد على الحقيقة، فتقول خرج زيد، وضرب لا تصل منه إلى الغرض بمعنى اللفظ وحده، و لكن تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض."[2] فهذان المحوران الإختياريان لا ينفصلا، وإنما هم حادثان في آن واحد، يقول الجرجاني: "فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني و الترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، وأن تحتاج بعد ترتيب المعاني غلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نقلها فباطل من الظن"[3]، والحدوث في آن واحد حسب قول عبد القاهر حدوث في غير

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 247

[2]- محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، ص 57

[3]-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 52

الروية و سرعة خروج الكلام على ما يقتضيه المقام، وهذا عكس ما لاحظناه عند الحديث عن النظرية التحويلية إذ كان الفصل معاني النحو ودلالات الألفاظ قائما و المعلوم أن الاختيار الأفقي لمعاني النحو هو للمعاني الكلية، كالتقديم والتأخير، وغيره من أوجه التحويلات، أما الاختيار العمودي فهو التوارد اللفظي على سبيل التداعي الذي تضمنه الذاكرة كما سبق الذكر لأهميتها في المدخل على ذلك الترتيب المخصوص لهذا تجد البلاغيين يقدمون باب علم المعاني على باب علم البيان، وعلم المعاني مخصوص بمقامات الكلام أما باب البيان فهو مخصوص بالإبانة عن الدلالات فلا تتصور مراعاة للمقام قبل وجود معنى وإرادة للإفصاح.

وهذا الذي سبق لا ينفي أن الاختيار على مستوى التوارد المعجمي غير موجود، بل هو موجود، وهو لتدخل العقل فيه والنفس على السواء الحظ الوافر على عكس الأول فإنه مخصوص بالعقل لأنه له حدود الأصول النحوية، و اختيارات الإتساع و العدول عن تلك الحدود، وكذالك الخطأ فيها لأنك تريد مراعاة المقام فيه فلو أخطأت انتقلت من مقام إلى مقام وخرجت عن مراعاته لأن" مقامات الكلام متفاوتة"[1]ومعنى التفاوت قرب الاختلاف والشبه من بعضها على السواء، أما الاختيار في الألفاظ فدليله وجود المعاني الحقيقة والمعاني المجازية، وفيه الفهم من ظاهر اللفظ، ومن تأمله بالتأول، ومن معنى معناه وسنفصل هذا في أوانها.

3. العمليات العقلية النفسية و اللغوية في الصور البيانية

في هذا المحور سنتطرق إلى الصور البيانية وتنقلها بين الحقيقة والمجاز و فهما عن طريق الألفاظ أو المعاني، والأوجه النفسية والعقلي في صناعتها، وسنبدأ بما هو اقرب للغة باعتبار العمود الفقري للغة أي الإسناد الذي منه الحقيقة والمجاز.

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 31

يقول الجرجاني:"فينبغي أن تعلم أن من حقك إذا أردت أن تقضي في الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين:

إحداهما:أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو من حقه موضعه، أم قد آل عن الموضع الذي هو فيه.

ثانيهما: أن تنظر إلى المعنى المثبت فيما وقع عليه الإثبات كالحياة في قولك أحيا الله زيدا"[1]، وهو هنا يتحدث عن الحقيقة العقلية والمجاز العقلي، والحقيقة العقلية هي"إسناد الفعل أو معناه، إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر.،وقولنا في الظاهر ليشمل ما لايطابق اعتقاده مما يطابق الواقع، وما لا يطابقه، فهي أربعة أضرب:

أحدها ما يطابق الواقع واعتقاده، كقول المؤمن – انبت الله البقل –

والثاني:ما يطابق الواقع دون اعتقاده، كقول المعتزلي لمن لايعرف حاله و هو يخفيها منه – الله خالق الأفعال كلها –

والثالث ما يطابق اعتقاده دون الواقع، كقول الجاهل: - شفى الطبيب المريض- معتقدا شفاء المريض من الطبيب.

والرابع: مالا يطابق شيئا منهما ك الأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالما بحالها"[2] القول فيه أن هذا النوع من الإسناد علي الحقيقة للفعل أما في معناه إذا كان بثلاث أمور هي:مطابقة الواقع مع الاعتقاد، مطابقة الاعتقاد دون الواقع، مطابقة الواقع دون الاعتقاد، والاعتقاد يمثل حالا في المتكلم ومطابقة الواقع هن أعم من الاعتقاد لأنه إذا كان المتكلم معتقدا لشيء غير ثابت له في الوقع حقيقة عقلية لأن السامع لا يعرف ما في اعتقاده، والمثال على ذلك قول المعتزلي المذكور سابقا، وهذه الحقيقة تكون مما يقبله العقل بلفظه دون تأول.

[1]-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح:السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1988، ص 320

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص50

"وأما المجاز فهو؛ إسناد الفعل، أو معناه، إلى ملابس له غير ما هو له بتأول"[1]، والقول بتأول يخرج كل ما سبق ما سبق إلى عكسه، فمثلا قول الجاهل –شفى الله المريض- متأولا لأن ما في لسانه ليس معتقدا به، أي قوله خلاف لما في عقله.

يبدو أن الإمكانيات اللغوية التي تتفاعل مع النفس في تصوير المعاني، والتماس مناصب الجمال في الخطاب، فالحركة العفوية في الالتقاط المجازي للعالم، فأصبح مجال الاستعارات و الكنايات و التشبيهات هو العالم الذي نصنعه كي نعيش فيه، بحيث لا يصبح النقل مجرد تلاعب بالكلمات، بل يعمل خلال طرائقنا في الفهم[2]، إذا فالصور البياني هي عمليات أكثر منها لغوية إنها عالمنا الدلالي الذي تعيش في أخيلتنا، فإذا رأيت شخصا شجاعا، فوصفته بالأسد، فقلت -فلان أسد- السؤال المطروح لماذا لم تكتفي بوصفه بالشجاعة؟، والجواب من محض التخمين انك ستقول لأني رأيت في شجاعة تفوق شجاعات الإنس، فلم تكفه الشجاعة، نعم غنه المعنى الفائض

4. تعلق الصور البيانية بالمعطيات اللغوية:

-القول في المجاز:"المجاز ضربان واستعارة، مرسل واستعارة، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له، وإلا فهو مرسل.

"والصحيح من القضية في ذلك أنكل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وذلك أن نرى كلام العارفين بهذا الشأن"[3] فالاستعارة أخص من المجاز وكثيرا ما تطلق الاستعارة على استعمال اسم المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعارا منه، والمشبه مستعارا له واللفظ مستعارا وعلى الأول لا يشتق منه"[4] إذ الإستعارة من بين التلاعبات اللغوية باللفظ

[1] المرجع نفسه، ص51

[2] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 47

[3] -عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 346

[4] - الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 31

وأصلها التشبيه المحذوف أحد تطرفاه، وهي استعارة لفظ بالوضع على شيء لم يوضع له أن يوصف به.

ثم إن في الاستعارات قرب معقول بين القول المصرح به و المعنى أو الدلالة المرادة به، و تجد أن هذا القرب دائما ما تضمنه اللغة بألفاظها، وعلى سبيل المثال في قولنا: (تعوي الرياح) استعارة حذف أحد مشبهيها، هو المشبه به، وهو الذئب، و الجامع بينهما الليل والخوف، و كلا المعنيين قادنا اللفظ إليهما.

و الاستعارة على ضربان، إستعارة تحقيقيه، و استعارة تمثيلية قريبة من معنى الكناية

و القول "أن الإستعارة مجاز لغوي كونها موضوعة للمشبه به، لا للمشبه ولا لأمر أعم منهما، كالأسد إنه موضوع للسبع المخصوص لا للرجل الشجاع، ولا للشجاع مطلقا؛ لأنه لو كان موضوعا لأحدهما لكان استعماله في الرجل الشجاع من جهة التحقيق لا من جهة التشبيه و أيضا لو كان موضوعا للشجاع مطلقا لكان وصفا لا اسم جنس"[1]، وهذا ما يفسر أن العملية العقلية و النفسية في مجال الاستعارات التحقيقية والتشابيه ذات معطيات لغوية تثبتها معاني الألفاظ، فقولنا -فلان أسد- تشبيها له بالأسد بالشجاعة من حيث الشجاعة ضمنته لنا صفة الشجاعة في الأسد، و القيد على أن لا يفهم أن فلانا أسد بذاته الحيوانية هو القرينة اللغوية والعقلية على حد سواء.

و لقد سمى "فرويد" هذه الصور البلاغية بالنكت البلاغية" فعندما يضع "فرويد" نفسه من منظور التوليد النفسي للنكتة في تقنياتها اللغوية،على أن تركيب هذين التصنيفين – اللغوي و التوليدي النفسي – يستحق الاهتمام فمن وجهة النظر التوليدية يقسم "فرويد" جميع النكت إلى ثلاث مجموعات:

- لعب بالكلمات

[1]- المرجع نفسه، ص 325

-كلمات يعثر فيها على شيء معروف

- كلمات متضادة

دون أن يوضح علاقة ذلك بالثنائية الأولى، نكتة لغوية نكتة عقلية، وإن كان يقول أن المجموعة الثالثة الخاصة بالتضاد، تضم معظم النكت العقلية، مما يترك لدى القارئ انطباعا بأن المجموعتين الأولى و الثانية تنتميان للنكت العقلية"[1]، نلاحظ هنا أن "فرويد" مازال تحت تأثير الدراسات النفسية التي وسمت بالتداعي الحر و هي تقنية لعلاج المرضى نفسيا، لأنه قد يكون قاصدا بضم التلاعب بالكلمات و الكلمات التي يعثر فيها على شيء معين اللعب بالكلمات الشحنة النفسية التي تخرج النكتة العقلية عن غير قصد ولا روية فهذا صحيح من ناحية واحدة هي أن النفس دافعة للعقل بأن تعلمه أن المعنى ينبغي أن يخرج على هذا المنوال

أما ما هو من قوله في عنصر كلمات يعثر فيها على شيء معروف، أي علاقات يثبتها العقل، فنجد ذلك في المجاز المرسل الذي هو؛"ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه، كاليد إذا استعملت في النعمة لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة"[2] هي معروفة من العلاقة بين اليد و النعمة، فالعلاقة ليست مقيدة باللغة. فعلاقات المجاز المرسل متعددة، كالسببية، و اعتبار ما كان ،و واعتبار ما يكون، و علاقة الآلة..... وغرها من العلاقات.

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص44

[2]- الخطيب القزويني، المرجع نفسه، ص311

5. الانتقال من العلاقة اللغوية إلى العلاقات المعنوي

الاستعارة بالكناية، و الاستعارة التخييلية

و القول في جمعه بين الاستعارة والكناية أن الاستعارة أعم من الكناية من ناحية أن الاستعارة تطلب وتفهم باللفظ والمعنى على السواء، أما الكناية هي استعارة معنى لمعنى آخر، فالمعنى الأول طريق للمعنى الثاني المراد، واعلم أن المعنى كلما كان أعمق في العدول عن الحقيقة كان أبلغ وأجمل و"أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه، وأن التمثيل أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر"[1]، وهذا قد جعل الكناية أرفع التصويرات البيانية وتحدث عن فضل المجاز عن الحقيقة، ولعله بهذا يوافق الجرجاني في الرأي فيقول الجرجاني : قد أجمع القول على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، و التعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مرتبة وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة"[2]، و يواصل الرجل الفذ الذي ترك بصمته متر جمة للسانيات النفسية في دراساته المعمقة، فيقول أيضا في فضلها:" فإنها تسكن في أنفسنا- يقصد الكناية- تمام السكون، وإذا عرفنا السبب في ذلك والعلة، ولم كان كذلك، وهيأ له عبارة تفهم عنا من نريد إفهامه"[3]، و بالتالي فالمجاز أبقى في النفس من الحقيقة، وهذا مثبت بالتجارب التي اهتم بها علم النفس في مجال البنى العميقة، ليست البنى التي قصدها تشومسكي بل البنى الدلالية التي قالت بها نظرية الدلالة التوليدية لرائدها "لايكوف" " فقد اهتم علماء علم اللغة النفسي بما نتذكره من الرسائل اللغوية، ويقدم لنا-سلوبن- بعض الدراسات الخاصة بهذا الموضوع، وهو بادئ ذي بدء يقرر من واقع

[1]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 376- 377

[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 70

[3]- المرجع نفسه، ص 70

الخبرة أنه بمجرد ما يستعيد المستمع المعاني العميقة[1] فأن الصيغ الصيغ السطحية لن تعود ضرورية، ويمكن أن تفرغ من الذاكرة"[2]، فالكناية أحسب أن سيبقى معناها في النفس مع بنيتها السطحية لما فيها من تكثيف للمعنى، ففيها معنى المعنى، وببساطة لأن النفس ميالة للجمال أكثر و لأن ها تخييلية ببساطة أكثر.

يقول الخطيب في الكناية"الكناية لفظ: أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك (فلان طويل النجاد)أي: طويل القامة و(فلانة نؤوم بالضحى) أي: مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات.....، ولا يمتنع أن يراد من ذالك طول النجاد، والنوم بالضحى، من غير تأول"[3]، أما عن الفرق بين الكناية و المجاز، فهو أن المجاز يلزم فيه التأول بسبب القرينة اللغوية المانعة، أما في الكناية فيجوز التأول و يجوز الاكتفاء بالمعنى الأولي، وهذا هو معنى المعني الذي كان الجرجاني ينبه عليه.

و القصد في هذا المحور، أي محور البيان و بلوغ الإفهام لم يكن لتحليل الصور البيانية والبسط فيها بقدر ما كان للإبانة على الترتيب الذي يجعل من الصور البيانية تنطلق من الظاهرة اللغوية إلى الظاهرة النفسية التخييلية .

[1]- المقصود بالبنية العميقة المعاني غير المباشرة أي المستنتجة

[2]- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، ص 138

[3]- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 365

خاتمة

ختاما نقول أننا وجدنا من الفائدة لهذا البحث المتواضع الشيء الكثير، خاصة أنه بحث يتطرق إلى تراثنا العربي الذي نفتخر برصيده المعرفي أيما افتخار، فالمجد و الخلود لعلماء لغتنا ولغة كلام الله الذين لم يبخلوا بأي جهد في دراسة هذه اللغة التي كتب لها الخلود ملازمة لدوام خلود الكتاب الكريم.

ففي هذا البحث توصلنا إلى نتائج تثبت لنا وجود اللسانيات النفسية في التراث العربي لا نقول أننا تطرقنا إلى كل المسائل التي تتطرق إليها اللسانيات النفسية بالدرس لكن على الأقل فيما يتعلق بثلاث مجالات في مجال اللسانيات النفسية، الجانب الأدائي بنوعيه الإنتاجي و الاستقبالي، وكذا لاجانب الاكتسابي وفي كل مستويات اللغة، من مستواها الصوتي إلى مستواها البلاغي التداولي والإبداعي، وملخص القول أننا توصلنا إلى نتائج نوجزها في النقاط التالية:

1. أن المشترك بين علمي النحو والبلاغة يدخل أكثره ضمن اللسانيات النفسية، لأن الإنجاز الفردي للغة لابد له من المزج بين المبنى والمعنى، والمعلوم أن المزاوجة بين المبنى، والمعنى في دراسة اللغة قد أبانت عنه نظرية النظم **لعبد القاهر الجرجاني**.
2. أن اللسانيات النفسية في التراث العربي قد أعطت الأولوية للظواهر اللغوية الأولوية وما الظواهر النفسية إلا تبع للظواهر اللغوية، ومن هنا فقد تمثّلوا اللسانيات النفسية أحسن تمثّل وهذه النقطة تحيلنا إلى نقطة أخرى تابعة لها هي:
3. أن العرب قد تبنوا المنهج السلوكي المتمثل في الملاحظة الخالصة للظواهر اللغوية، لكن المميز عندهم أنهم لم يهتموا بالسّلوكات المجرّدة بل تجاوزوا ذلك إلى دراسة قواعد السلوك اللغوي.
4. إن تجاوز العرب الملاحظة المجردة التي أخذت بها السلوكية، و سبرهم لأغوار اللغة لم يجر العلماء العرب إلى الافتراضات التي جرت تشومسكي إلى النمطية العقلية المنطقية، فلا إفراط ولا تفريط في النظرية اللغوية العربية.
5. إن منهجية الخطيب القزويني في ترتيبه لكتاب الإيضاح الذي كان موضوع الدراسة، هو مثبت للنتيجة التي أسلفنا ذكرها، و هي أن العرب قد جعلوا الظواهر النفسية تابعة للظواهر اللغوية، فإنهم بمجمل القول لم يفصلوا بين الوجه الاجتماعي للغة و الوجه النفسي لها لأن النفس في تعاملها مع اللغة تابعة لقوانينها الاجتماعية.

6. إن السلوكية قد أعطت الطريقة المثلى في تعليم اللغة فالمحاكاة والتقليد هما أساسا الاكتساب اللغوي خاصة في التراث العربي، إلا أنّهم لم يعطوا التفسير الملائم للظاهرة اللغوية فمن خلال المدونة، وفي فصلنا الأول الذي عنوانه فصاحة المتكلم أصل لبلاغة الكلام، وبعد التحليل وجدنا أن جانب فصاحة اللسان في أداء الكلام، و فصاحة المفردات لهما صفة الإتباع والمحاكاة لا غير، لكن السلوكية تتوقف تفسيراتها عند وصول الكلام إلى مستوى التراكيب الإبداعية.
7. الوصول إلى باب معاني النحو في البلاغة العربية يحيل دائما إلى النظرية التحويلية لرائدها تشومسكي الذي كان نمطيا في تفسير الظاهرة التحويلية في اللغة حيث فصل الدلالة عن البنية النحوية والعمليات التحويلية عنده هي عمليات مبنوية، في حين أن في معاني النحو أن لكل حركة تحويلية لها معنى تِؤديه، وهذا معنى عام تجري مجراه المعاني النفسية الثانوية، إن المعاني النحوية ببساطة هي أيادي النحو التي تقبض بها المعاني، و تتوخى بها المقامات .
8. أما في ما يخص الدلالة أو ما تمحور في الكتاب المدروس في باب البيان، فقد ظهرت الحقيقة السابقة الذكر فرغم التعلق الشديد للدلالة بالنفس إلا أن الملاحظ في كتاب الخطيب أنه ابتدئ بالطرق البيانية اللغوية قبل الطرق النفسية التخييلية، فبدأ بالتشبيهات، ثم الاستعارات، ثم الكنايات.
9. في هذا البحث استنتجنا أن الاستقراء يفي أيضا بالدراسة اللسانية النفسية من جهة أنّه يدمج بين المنهج السلوكي من حيث الملاحظة، و من جهة أخرى هذا المنهج يفي بالغرض من الناحية العلمية في كون اللغة المجموعة تكون ذات عفوية بعيدة عن التكلف أي بعيدة عن المنهج الاستبطاني العقلي الذي يقود إلى النمطية ، وهذا بدليل أن الأداء الكلامي مصدره العقل، و المسلم ب هان عقول الأصحاء متساوية في أداء اللغة المشتركة.
10. وفي الأخير نجد الفرق بين اللسانيات النفسية العربية و الغربية، هو أن اللسانيات النفسية العربية غلبت اللغة على النفس في الدراسة لأن المنطلق لغوي أما اللسانيات النفسية الغربية فقد غلبت الظواهر النفسية على الظواهر اللغوية، و هذا بتأثير علم النفس اللغوي على اللسانيات النفسية، وهذا ظاهر في التعميم الذي أجراه "سيغموند فرويد" حيث انه عمم الشحنة النفسية على جميع الصور البيانية البلاغية: كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن البيان.

خاتمة

و في الأخير وكخلاصة عامة، نلاحظ وبلا أدنى شك أن النظريتان: السلوكية والنظرية التوليدية التحويلية، الأولى أوقعت اللغة في الآلية، أي أن الأداء اللغوي والمعنى النفسي يتصلان اتصالا مباشرا، ومعناه استبعاد العقل في العملية النظمية، والثانية التي جعل من خلالها "تشومسكي" الأداء اللغوي ذو معادلات رياضية تجريدية محضة، إلاّ أنّ هاتين النظريتين قدمتا الكثير للدراسة الغوية على أصعدة عدة.

انتهى بعون الله و توفيقه.

ملحق

- التعريف بالمدونة

التعريف بالمدونة

كتاب الإيضاح في علوم البلاغة المعاني و البيان والبديع:

هو كتاب في البلاغة العربية لمؤلفه الشيخ الإمام العالم العلامة خطيب الخطباء جلال الدين أبو عبد الله محمد، ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن، ابن إمام الدين أبي حفص عمر القزويني الشافعي[1]، وهو في البلاغة يتميز بالبراعة في مسائلها و التنقيب عن أسرارها يقول عنه محمد عبد المنعم الخفاجي- وهو أحد محققي كتاب الإيضاح-"يمتاز الإيضاح للخطيب القزويني بعدة ميزات ظاهرة: فهو أوفى كتاب في بحوث البلاغة، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما، وأسلوبا، وهو كثير البحث والتعمق، والاستنباط لأسرار البلاغة".[2]

إن المميز في هذا الكتاب هو تعمقه في مسائل البلاغة و التحكم في الغريب فيها و الشرح المفصل لمواضعها المشكلة، وسماه مؤلفه بالإيضاح لأنه شرح لكتاب ألفه ذات المؤلف من قبل سماه "تلخيص المفتاح"، الجزء الخاص بالبلاغة المدرج في مفتاح العلوم "للسكاكي"

يقول عن هذا الكتاب مؤلفه، فهذا كتاب في علوم البلاغة و توابعها، ترجمته بالإيضاح، وجعلته على ترتيب مختصر في الذي سميته "تلخيص المفتاح" و بسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة وعمدت فيه إلى إظافة ما خلا منه المختصر من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في

---

[1]- الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح..، خطبة المؤلف، ص8.

[2]- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم الخفاجي، ج1، المكتبة الأزهرية للتراث، ط3، الإسكندرية، ص11

التعريف بالمدونة

كتابه "دلائل الإعجاز"و"أسرار البلاغة" ، وأخذت منهما زبدة ذلك كله، وهذبتها و رتبتها حتى يستقر مجموعا في هذا العلم"[3]

[3] - الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح...، خطبة المؤلف، ص08

قائمة المصادر و المراجع

أولا: المصادر

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان.
2. الجرجاني أبو بكر عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، تح: سعد كريم الفقي، دار البقين للنشر والتوزيع، المنصورة، 2001
3. أسرار البلاغة في علم البيان، تح:السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1988
4. سيبويه أبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة ،1988
5. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة
6. الزمخشري أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد ، أساس البلاغة، تح: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998
7. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، خرجه واعتنى به: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، عمان الأردن، 2006
8. ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان،2007
9. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني و البيان و البديع، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا
10. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2003
11. الجرجاني السيد شريف ، الحاشية على المطول، قرأه وعلق عليه: رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971

12. القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل إعجاز القرآن،ج16 تح: أمين خولي، دار الكتب، القاهرة، 1432هـ،
13. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار العلم للجميع، بيروت لبنان

ثانيا: المراجع

1. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2004
2. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو
3. أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ و التطبيق، الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع الجزائر، 2009
4. الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة، 1999
5. أليسون إيليوت، التطور اللغوي عند الأطفال، تر: بشير محمد شاوش، إدارة المطبوعات والنشر، جامعة طرابلس، الجماهيرية العظمى، 1998
6. جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه و نظرياته و قضاياه، ج1/المناهج مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية
7. جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته و قضاياه، ج2/القضايا مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع و النشر والتوزيع، الإسكندرية
8. جوديث جرين، التفكير واللغة، تر: عبد الحليم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992
9. صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر 2008
10. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة العالمية المصرية، لونجان 1996

11. عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، علم اللغة النفسي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية 2006

12. عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، الفصل بين النفس و العقل، مكتبة دار المنهاج للنشر و التوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية

13. عبد العزيز عبده أبو عبد الله، المعنى و الإعراب عند النحويين و نظرية العامل منشورات الكتاب و الإعلان و المطابع، ط1، ليبيا، 1982

14. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد، ط3 بنغازي ليبيا، 2009

15. علي أبو المكارم، مدخل إلى تاريخ النحو، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة، 2007

16. خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، ط2، الجزائر 2006

17. فاضل صالح السامرائي،معاني النحو، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عمان الأردن

18. محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، دار الكلام للنشر و التوزيع الرباط المغرب،1990

19. محمد بن علي العمري، أداء الكلام و علاقته بالمعنى و الإعراب، مجلة أم القرى لعلوم اللغات و آدابها، الع:3، محرم 1431، يناير 2010، مكة

20. محمد محي الدين عبد الحميد، شرح قطر الندى و بل الصدى ومعه كتاب سبيل الهدى بتحقيق قطر الندى، دار الطلائع للنشر و التوزيع، القاهرة، 2009

21. محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، الشركة المصرية العالمية، لونجان القاهرة،1994

22. محمود حسن الجاسم، القاعدة النحوية تحليل و نقد، دار الفكر، دمشق، 2007
23. مصطفى غلفان وآخرون، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2010
24. مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها و مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، 2010

ثالثا:مواقع إلكترونية

1. ديوان العرب www.diwanalarab.com
2. منتدى الأصلين/الفرق بين النفس والعقل والدماغ show_www.aslein-php.com

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة.....1-4

مدخل.....6-10

ماذا نقصد باللسانيات النفسية؟.....5-6

مفاهيم أساسية في اللسانيات النفسية.....07-10

الفصل الأول: فصاحة المتكلم أصل لبلاغة الكلام.....12-40

فصاحة المتكلم بين نظام اللسان وأداء الكلام.....13-24

I. تعلق الفصاحة بالمتكلم تعلق اتباع.....13-23

1. مفهوم الفصاحة.....13-16

2. فصاحة اللسان في أداء الكلام.....16-19

3. فصاحة المفردات.....19-24

أولا:مخالفة القياس.....20-23

ثانيا:في إفراد الخطيب لمخالفة القياس بالقياس الصرفي.....23-24

II. فصاحة التعبير عن المقصود بلفظ فصيح تعلق إبداع.....25-31

1. القول في الكلام.....26-27

2. فصاحة الكلام عند الخطيب.....28-31

أولا: ضعف التأليف.....28

ثانيا:التنافر.....29

ثالثا:بعد الكلام التعقيد.....29-31

III. الفصاحة ملكة شأنها الإكتساب.....31-40

1. التصورات اللسانية الحديثة لاكتساب اللغة.....32-36

أولا:التصور العقلي.....33-34

ثانيا:التصور السلوكي.....25-36

ثالثا:التصور المعرفي.....36

فهرس المحتويات

2. إكتساب اللسان في التراث العربي.....37-40
أولا:إكتساب اللسان وأولية الاستقراء.....37-39
ثانيا:لزوم الصناعة.....39-40
الفصل الثاني: بلاغة المتكلم من القصد إلى بلوغ البيان.....40-68
I. النحو على الحقيقة قصد.....43-52
1. أحكام النحو من مقدمات معانيه.....44-48
2. المعاني النحوية ن.....48-52
II. التصور العقلي للملكة البلاغية والنمطية المنطقية.....52-59
1. القول في تقسيم الكلام عند تشومسكي.....53-54
2. الفرضية التحويلية و المعاني النحوية.....55-58
III. البيان وبلوغ الإفهام.....59-68
1. البيان عند الخطيب.....59-60
2. القول في مفهوم البيان.....60-63
3. العمليات العقلية اللغوية في الصور البيانية.....63-65
4. تعلق الصور البيانية بالمعطيات العقلية.....65-67
5. الانتقال من العمليات اللغوية إلى العمليات العقلية.....67-68
خاتمة.....70-72
قائمة المصادر و المراجع.....76-79
فهرس المحتويات